أحمد عبد العليم

رواية

أحلام الرجُل الخمسيني



دار اكتب للنشر والتوزيع

أحلامْ الرجلْ الخمسينيّ

أحلام الرجلْ الخَمسينيَ

أحمد عبد العليم

تصميم الغلاف: كريم آدم

تدقيق لغوي: د. إيمان الدواخلي

رقم الإيداع:2649 /2015

I.S.B.N: 978-977-488-347-7

دار اكتب للنشر والتوزيع

الإدارة: 10 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة.

المدير العام: يحيى هاشم

هاتف: 01144552557 – 01147633268

E – mail:daroktob1@yahoo.com

Facebook:دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ، 2015م

أحلامِ الرجلْ الخَمسينيّ

أحمد عبد العليم

رواية



دار اكتب للنشر والتوزيع

إلى هؤلاء الذين يُكدِّسون الأحلام ويُقدِّسونها،

ويعرفون أن الأمل.. حياة!

مُفتَتَح

نصيحة

لا تنتظر مَن غاب

ولا تأخذ بنصيحة أحد

حتى هذه النصيحة !

الفصل الأول

آخر الحكاية!

صيف 2013 – الإسكندرية

(1)

رجلٌ خمسينيّ نحيل، خطواته متمهلة، بالكاد يسير، على رصيف ممتد ، على يمينه البحر الذي يعرف عنه الكثير ويعرفه، وعلى يسارِه طريق مزدحم بالسيارات، التي لا تكف عن ضجيجها المستمر، يرتدي بنطالًا أسود يبدو واسعًا عليه وقصيرًا قليلًا، وقميصًا أبيض يبدو أوسع من جسده الهزيل، فوقه "بلوفر" أحمر خفيف. شعره أبيض فَضيّ كثيف، ويرتدي نظارة سوداء، يحاول أن يحجب بها ما تخفيه عيناه عن العابرين، أو ربما لا يريد أن يرى البشر المجاورين لخطواته ذهابًا وإيابًا، إلا باللون الذي تمنحه تلك النظارة إيّاه.. الأسود!

في وجهه تجاعيد الزمن الذي مضى.. خطوط متقاطعة، متقطعة، ترسم خُطىً متقابلة وأخرى متفرقة. وبين هذه الخطوط المنهكة خطان ظاهران يسيران في طريقين متوازيين، منبعهما عيناه ومصبهما طرفا شفتيه، اللتين تبدوان وكأنهما خاصمتا التبسُّم منذ زمن بعيد.

يسير الرجل ببطء شديد، ويتنسم هواء الإسكندرية، الذي طالما أدمنه وتناسى به همومًا كثيرة.. ويحمل في يده اليسرى وردة حمراء،

تفقد بعض وريقاتها مع هواء البحر الشديد وحركات يده المرتعشة، ويُقبّل يده اليمنى من حين لآخر، قُبلة غريبة!

يرى ابتسامة مريبة في وجوه العابرين، ممن يتعجبون من هيئته ومن الوردة الحمراء التي يحملها. ومن يده اليمنى التي يُقبّلها من حين لآخر.. يكمل المسير، ويسمع كلمات لا يعرف مغزاها؛ أو لا يتعب نفسه بالتفكير في فحواها.. ويقابل همزًا وغمزًا ولمزًا من العابرين، ولكنه لا يعبأ بهم، وهو ينظر إلى الرصيف، وكأنه يسير على خُطى أحد يمشي أمامه، وكأنه يتلمس خطوات كانت تسير هنا بالأمس القريب في نفس المكان، يحاول أن يقتفي أثرًا مضى.

ويكمل السير، حتى يقف عند جانب من السور الخفيض، الذي يفصل بينه وبين البحر. وما يلبث أن يقف ويسند كلتي يديه على السور، ويأخذ نفسًا عميقًا، ربما أعمق ممن يريدون نَفَس الحياة الأخير في طريقهم إلى الموت المرجو. يميل الرجل برأسه إلى الأمام ناظرًا إلى الصخور، كأنه يريد الوصول إليها لأمرٍ في نفسه. ويحاول أن يقفز الرجل الخمسينيّ فوق السور، كي يترلّ إلى الصخور، فيَهمّ شاب عشرينيّ كي يساعده.

يحاول الشاب أن يعرف ماذا يريد أن يفعل هذا الرجل كبير السن، وأن يستكشف سر معاناته تلك في صعود سور والوصول إلى صخورٍ في مهب موج لا يهدأ. ويصل الرجل إلى مبتغاه حيث الصخور، ويجلس فوق إحداها، بعد مساعدة من الشاب وبعض العابرين،. وما إن يجلس، وقبل أن يرحل عنه الشاب والمتطوعون بالمساعدة، حتى تقع منه مطواة قديمة صدئة، فيتوجسوا منه أكثر،

ويفكروا في سبب مقنع كي يحمل رجل في مثل هذا السن مطواة قديمة، خاصة وأنه رجل لن يفكر أحد -مهما بلغت قسوته أو حاجته منه- أن يهاجمه؛ وإن وُجد، فأيضًا لن تغنيَه تلك المطواة، ولن تفيده في دفع الشر عنه، لأنه يبدو ضعيفًا حدّ الوهن!

وما إن يلتقط أحدهم المطواة من الأرض، قبل أن تسقط في المياه، حتى ينتزعها الشاب منهم ويطالبهم بالرحيل. وما إن يرحلوا، حتى ينتزع الرجل المطواة بشدة من يد الشاب العشرينيّ، ويطلب منه أن يرحل أيضًا. وبعد نقاش مقتضب، يطاوعه الشاب ويمشي، نزولًا على رغبته الملحة؛ ولكنه يقف من بعيد، ويترقب.

يظن بعض العابرين المتعجبين المتوجسين أن هذا الرجل الخمسينيّ في طريقه للانتحار، رغم أنهم ارتأوا على وجهه علامات الإقبال على الحياة، وليس النفور منها. ورغم علامات الأسى وارتجافات يده المرتعشة، وآثار دمعات خجولات حائرات محبوسات خلف نافذته الزجاجية السوداء المغلقة، إلا أن ثمة فرحة رقيقة راقية مُحتجبة تأبى أن تتوارى، وثمة نافذة أمل منتشية بالحنين تستعصي على التلاشي أمام كل إحباطات الزمن البادية عليه!

(2)

يقف الشاب العشرينيّ خلف السور الخفيض الفاصل بين البحر، حيث يجلس الرجل الخمسينيّ، وبين الرصيف حيث يعبر الناس، ممتطياً جواد التطفُّل، وقافزًا فوق كل حواجز نظرات الرجل الحريصة ألا يراه أحد، بمهارة بالغة، ومتملصًا من نظرات العابرين المتعجبين، ممعنًا في الاختباء، مركزًا كل تفكيره ونظراته صوب الرجل الخمسينيّ.

وما يلبث أن يلتفت الرجل الخمسينيّ يمينًا ويسارًا، كي يتأكد من عدم وجود أحد يتابعه بتوجُّس أو يراقبه بتطفُّل، حتى يجد أن الكل انصرف، بعد أن ادّعى لهم أنه بخير، وأنه فقط يحب أن يجلس بجوار البحر هنا فوق تلك الصخرة الآمنة. وبعد أن ردّ كل تساؤلاتهم الصامتة وتكهناتهم القلقة وريبتهم المُسبَّبة بشأن المطواة، بأنها مجرد مطواة قد وجدها أثناء قدومه، وأنه خشي أن تقع في يد بعض المراهقين.. من أمثالهم، انفضّ الناس من حوله ببطء متثاقلين، وهم يلتفتون إليه كل حين، كي يتأكدوا أنه لا يُقدم على الانتحار، خاصة بعد أن وصفهم بالمراهقين، ونهرهم كي يتركوه وشأنه.

وما إن يطمئن الرجل إلى أنه وحده مع الصخرة وثالثهما البحر، وأن الناس قد رحلوا، حتى يبتسم ابتسامة خجولة تغرقها الدموع التي

تنساب وتتساقط من عينيه، ويحرك كلتا يداه على الصخرة، ثم يتحسسها بيده اليمنى، ويخلع نظارته السوداء بيده اليسرى، وتظهر عيناه الحزينتان المغرورقتان بالدموع، وتحت عينيه ثمة مساحة داكنة تكتسي بالحداد. يتحسس الرجل الصخرة دون أن ينظر إليها، كأنه كفيف يعرف معالم طريقه دون سند أو مُرشد مكتفيًا بنور البصيرة. يلمس هذه الصخرة الصلبة برقة بالغة، كأنه يحفظ جيدًا حدودها الجغرافية وتحفظ هي تاريخه.. يحفظ هو تكوينها وتحفظ هي كيانه وكينونته.. كأنه يمنحها نبضًا وتمنحه هي حياة!

يراقب الشاب تعبيرات وجه الرجل بقلق من بعيد، ويخشى أن يكون هذا الرجل في طريقه للانتحار بالمطواة التي يحملها، خاصة أنه لا يصدق أنه وجدها في الطريق صدفة. يقف في مسافة تجعله ليس بعيدًا عنه إن أراد إنقاذه من أي سوء، وليس قريبًا منه إن حاول الرجل تبيان أحد يراقبه.

فجأة، يقطع تركيز الشاب العشريني رنّة على هاتفه المحمول، صوت رسالة على موقع "الفيس بوك" الخاص به. يفتح الرسالة فيجدها من حبيبته شيماء، قلقة عليه وتسأله عن غيابه منذ الأمس. ويفرح عمر لسؤالها، ولكنه يتردد في الرد عليها، وفي النهاية يرد على صباحها وسؤالها..

-صباح الفُل يا روح قلبي.. معلش انشغلت ومعرفتش أكلمك بالليل وصحيت متأخر النهاردة الصُبح

-روح قلبك يا كداب؟؟ إنت بتكدب يا عمر..

-بكدب ليه بس؟ ليه بتقولي كده يا شيماء؟

-يا عمر الرسالة بتاعتك اللى لسه باعتهالي حالًا ظاهر فيها ان إنت كاتبها من إسكندرية، أهو ظاهر قدامي أهو ***From Alexandria***

عمر يرتبك بشدة، ويحاول أن يحتوي الموقف قبل اشتعاله، لأن شيماء إن انفعلت تحولت إلى قنبلة موقوتة قادرة على أن تعصف بكل ما حولها والتهام كل ما يقف في طريق غضبها المشتعل. يخبرها بأنه بالفعل في الإسكندرية، وأنها لم تعطه فرصة كي يخبرها بذلك بعد أن ردّ عليها صباحها وسؤالها الأول. عمر يحاول نزع فتيل الأزمة بحسب عبارات السياسة المنمّقة، لكن يبدو أن محاولاته باءت بالفشل، وأن شيماء في طريقها لاستخدام سلاحها النووي الذي يخشاه عمر بشدة..

-لو عاوز تعرّفني إنك رايح إسكندرية كنت قلتلي من إمبارح لما كلمتك الصُبح يا عمر، أو عالأقل كنت كلمتني الصبح وقلتلي وانت معدّي على بلدي طنطا، كنت افتكرتني حتى مش هاقول افتكر سيدك سيد البدوي!!

-يا حبيبتي أصل...

-إنت بتخوّني يا عوووووومر

عمر يبدو عليه الضيق من إندفاع حبيبته، ويحس بأن ثَمة "شردحة" مدويّة قادمة. شيماء تعلن الحرب في رسالتها، وتلقي قُنبلة أولى مُعبِّرة مُعتَبرة، دون أي قلق من رد فعل الخصم الذي يبدو ضعيفًا

هزيلًا؛ فهي لم تكن لتجرؤ على إلقاء قنبلتها الأولى هذه لو كانت تعرف أن رد عمر رادع، أو حتى لو تعلم أن موقفه قوي. عمر يحاول نزع فتيل الحرب بسؤال يحمل قَدرا كبيرا من الملام لحبيبته، ويحاول تمرير حصان طروادة كي ينفذ منه إليها، كي يَعبر – دون أن تلحظ– إلى جانبها الرقيق ويستدعي هدوءها؛ يقول لها:

-بخونك إزاي بس؟!.. ده إنتي حبي الأول والأخير وأجمل وأرق حاجة في حياتي، وبعدين خيانة إيه بس ده مشوار مهم بخلصه وراجع على طول يا شيماء

-مشوار ولا رانديفو يا عمر؟!.. انت رايح تقابل بنت أكيد في إسكندرية؟!.. إسكندرية يعني بحر وحب وبنات يا عمر.. إسكندرية يعني رانديفوهات

تفشل خطة عمر في الخداع الاستراتيجي، وفي محاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه من غصن الزيتون المحترق حتى آخره، فهو من ناحية لا يريد أن يخبرها ،ممّا يفعله في الإسكندرية، ومن ناحية أخرى يحاول أن يرد ردودًا دبلوماسية، كي يعود مرة أخرى للرجل الخمسينيّ قبل أن يُقدم على أي فعل لا يُحمَد عُقباه

يُغلق عمر تلك الرسالة المدويّة، ويحاول الاتصال بحبيبته شيماء المُنهارة. شيماء تحتل المرتبة الأولى عالميًا في الغيرة، وتحتل المرتبة الأخيرة عالميًا في تكذيب ظنونها.. شيماء ترد عليه قبل حتى أن تبدأ الرنّة الأولى، ويستشعر عمر أن ثمة ضغطة قوية على زرّ الرد كفيلة بأن تحدث هزّة أرضيّة تصيب عمر بالدوار، وتُسقِط كل بنايات

حساباته القائمة والمفترضة. وما إن يبدأ عمر بالكلام، حتى تخترق مسامعه صرخات عالية، وتنهيدات متحشرجة، ونحيب شديد. أصوات تشبه ضوضاء الحروب في العصور الوسطى، ولا ينقصها سوى فقط صليل السيوف المتبارزة، وصوت دقات أقدام الخيول المتبارية وصهيلها المدوِّي، فيقول لها:

-يا شيماء أنا بحضر ندوة هنا في مكتبة إسكندرية ، أنا حتى مش مركّز في المحاضرة وبردّ عليكي لأنه مينفعش أشوف رسالتك وما أردش يا شيمو.. ياريت تهدي بس شوية

-أنا هادية أهو يا عمر بس أنا مش مصدقاك.. إيه اللي ودّاك أليكس؟

-أنا مبحبش كلمة "أليكس" دي يا شيمو.. إسمها إسكندرية!

-إنت بتغيّر الموضوع يا عمر، إنت بتهرب من الحقيقة الموجعة..

-يا شيمو بلاش بس الكلام الكبير ده، واستهدي بالله، الموضوع مش مستاهل والله يا قلب عمر

-إنت بتاخدني في دوكة عشان إنت عارف إني طيبة وعلى نيّاتي وبصدقك عشان بحبك، بس مش هسكت يا عمر ومش هصدقك المرادي

-إهدى بس يا حبيبتي وأول ما تخلص الندوة هكلمك

شيماء لا تهدأ ولن تهدأ.. تستشعر هي من ردوده المقتضبة تلك تأكيدًا لظنها وشكّها فيه بأنه يقابل فتاة في الإسكندرية، ويتحول ذلك إلى يقين عندما يخبرها عمر أن بطاريته على وشك أن تفرغ، وأنه

بمجرد أن يشحنها سيعاود الاتصال بها مرة أخرى. عمر يحاول تهدئتها بلا جدوى، ثم يُغلق هاتفه تمامًا، ويعاود القفز من تلك المأساة إلى مأساة الرجل الخمسينيّ؛ قبل أن يقفز..

(3)

ما إن يلمس الرجل الخمسينيّ الصخرة، حتى يبتسم ابتسامة خجولة أخرى؛ ولكنها تلك المرة مفعمة بحنين ما. على الصخرة نقش رقيق بآلة حادة، يتحسسه برفق.. حروف مكتوبة ناقصة، وحكاية غير مكتوبة كاملة!

يراقب الشاب الرجل، ويراه كأنه على وشك أن يحضن الصخرة، وأنها تكاد تحضنه.. كأنه يكلمها ويكاد يستنطقها من فرط الاحتواء المُطرَّز بوعاء المعرفة، والمُبطَّن بذكريات كثيرة وكبيرة. مكتوب على الصخرة ثلاثة حروف يتحسسها الرجل، «أ»،«ل»،«م».. وكأن القدر ينجز الحكاية ويوجز المعنى؛ «ألم».. بين الألف واللام والميم حرفان ضائعان، وقلبان ضائعان، وحياة ضائعة.. وبينهما ألف لحظة، وألف حكاية، وألف ألف أمل حزين. وبعد مسافة من الأحرف الثلاثة تلك، يتحسس الرجل بيديه باقي الصخرة، فيجد ثلاثة أحرف أخريات باهتة، مُصابة بأعراض الشيخوخة، كأنها مُنيت بهزيمة موجعة!

يلمس الرجل الخمسينيّ أطلال الأحرف الأخريات، غير الأحرف الثلاثة الأولى التي لامسها، وينطقها، ينطق اسمه، عُمَر، ويختصر عُمْرًا على مشارف النهاية، وما اسمه المُصَاب بأعراض الشيخوخة إلا صورة شفافة من صاحبه، فهو وإن كان بالكاد أكمل العقد الخامس، إلا أن

ما مرّ به من ظروف جعلته يشبه ضعف عمره، حيث يظن من يراه أنه بلغ من العمر عتيًا، وحركته البطيئة فوق خطوات الماضي تجعله يبدو وكأنه بالكاد قادر على الحركة.

يكمل الرجل حنينه الجارف إلى الصخرة، ويتحسس هذا القلب المرسوم بين الاسمين، هذا القلب الذي لم يتأثر بزخات المطر المتتالية كغزوات، ولم يتأثر بالرطوبة القارسة، وظل القلب موجودًا بين اسمها الباقي، رغم الحرفين التائهين، والذي يتذكره جيدًا.. واسمه الذي بالكاد يتذكره، لأنه لا يعرف نفسه بالقدر الذي يعرفها به.

يُخرِج الرجل الخمسينيّ المطواة من جيبه، ويفتحها بمعاناة، نظرًا لأنها صدئة للغاية. يقترب بوجهه من الصخرة أكثر، ويتلمس الحروف كلها، حرفًا حرفا، وينقشها من جديد بالمطواة، وكأنه يمنح كل حرف حياة جديدة. تدمع عيناه أكثر، خاصة وهو يُعيد نقش اسمها، الذي بهت منه حرفان، فيُعيد كتابة الحرفين من جديد، ويُعيد النقش فوق الأحرف الخمسة.. ينقش فوق حرف الألف، ثم ينقش بقوة أكثر فوق حرف الحاء ويُعيده للحياة، ثم يمر فوق حرف اللام ويلاصقه بحرف الألف ويُعيده للحياة من جديد، ويختم نقشه فوق حرف الميم..

ألف: أحبُّ القلوب

حاء: حب العمر

لام: لم ولا ولن تُنسى

ألف: الحب الأول والبراءة والصدق والأمل والصُدفة والحلم

ميم: مسيرة عُمْرٍ ومسيرة عُمَر

أ ح ل ا م.. أحلام اسمها ووصفها!

الشاب يحاول الاقتراب من الرجل الخمسينيّ المتحفز والمتحفظ، المُحاط بزخات دموعه ورطوبة العمر وموج الذكريات الذي لا يهدأ. ويحاول الشاب أن يُهدّيء من روعه، وهو يشاهد ملحمة غريبة مريبة. اقترب الشاب بهدوءٍ وبترقُّبٍ حذر من الرجل، وحاول أن يجعله يحكي بدايات ما رأى اليوم بعضًا من نهايته الأولى أو بداياته المتأخرة...

(4)

وَسِعَ كُرسيّ الفراغ ذاته، واحتضن ملذاته، ووارى زلّاته.. كان غريبًا مُستَغرَبًا مُغتَربًا، رغم مسافات القُرب من الجميع.. لا أحد يعرفه، وهو بالكاد يعرفهم. كان الرجل الخمسينيّ وهو في مقتبل العمر جسدًا بلا روح.. جسدًا يهرب من حقيقة المعنى، ولا يتسع لمعنى الحقيقة.. جسدًا عاريًا بالوهم، لا يتسع أبدًا لغطاء اليقين، يظن أن الحب هو الحقيقة الوحيدة في الحياة، وطالما أنه مازال لم يعثر عليه، فإنه يعيش حياة بمثابة موت بطيء؛ فالحب هو كل ذاته وأسمى ملذاته وأرقى زلّاته!

عشق الوحدة ووجدها زخم من التفكُّر والتقرُّب أكثر من الذات، والإمعان في البحث عما يستحق أن يملأ تلك الوحدة، خاصة في ظل الغياب المتقطّع لصديقه الأعز فارس، الذي لا يرتاح إلا لصُحبته. الوحدة لديه هي أن يكون كل البشر حوله حاضرين ولكنّ الحب غائب.. ولذلك، يأنس بوحدته وبفراغه وسط حيّزه الضيّق، في تلك المساحة المختنقة من ذلك العالم، في مدينة دمنهور، بلدته التي ولد بها وعاش فيها، يأنس بوحدته وفراغه في ظل افتقاده للحب.

وظلّ في افتقاده ذلك يتساوى وجوده بالعدم، حتى بات يشبه علامة الاستفهام وعلامة التعجُّب، فيقف مقوّس الظهر، مَحنيّ من

فرط ما يعانيه.. يقف مقوّساً محنياً على هذه النقطة من الكرة الأرضية، يشبه علامة الاستفهام، لأنه أضحى سؤالًا بلا جواب، وجوابًا يتيمًا ليس له سؤال، وما إن يحاول أن يستقيم بعد انحناء – بتمنيات ربيعية الهوى والهوية – حتى يجد نفسه واقفًا على نفس النقطة من الكرة الأرضية، يشبه علامة التعجب، لا يحرك ساكنًا ولا يبرح مكانه أبدًا!

كانت كذلك حياته وحيدة بائسة، وكان يأتي إلى الإسكندرية من أجل لملمة بعض من ذاته المشتتة المختنقة في مساحات جغرافية تفترس يوميًا مساحة البراح المتبقية له مع الحياة. كان يهرب إليها من العالم الآخر، ومن نفسه أيضًا، حيث كان البحر هو عشقه الأكبر، ومكانه المفضّل الذي يمتهن بجواره الانتظار!

وفي كل مرة يرى فيها البحر، كان يستشعر أنه يُخبئ له قدرًا ما، وأن القدر المحتجب عنه هو قصة حب قادمة لا محالة، وأن تلك القصة سوف تأتي بالقرب من هذا البحر، بحر الإسكندرية، فكان ينتظر الحب بالقرب من البحر لسنوات.. ولم يأت! لكن شغف الانتظار كان يلهمه بعضًا من الصبر على عناء حياته بدون حب، وذلك ليقينه بأن الحياة بدون حب حقيقي أفضل من حياة بحب مزيف، وأن حياة بدون حب أفضل من حب يقتل الحياة!

كان يرى أن البحر دائمًا ما يرتبط بالحب ويشبهه، بنسماته التي تسري في أجسادنا قشعريرة تشبه خفقات القلوب للحب، وأن البحر صورة حية متحركة نراها من الحب، فالبحر جزيل العطاء – مثل الحب – لمن يبحث فيه ويحاول أن يخرج بصيد ذي قيمة. وكذلك،

كلاهما غدار يسرق منّا العمر بأكمله، في لحظة نفقد فيها قوتنا على التجديف نحو شاطيء الأمان، باختيار في غير محله أو بقدرٍ نُساق إليه، فيسرقنا موج الألم نحو العمق، عمق الوجع، حيث مستقر الموت، وبداية النهاية، حيث الغرق. كذلك البحر مثل الحب، يحمل كل الناس فوق ظهره بلا تفرقة، ويمنح بلا تمييز، وكثيراً ما يمنح مرورًا آمنًا لَمن لا يستحق!

لكنّ بحرَ الهوى الذي أوفى الرجل الخمسينيّ في الانتظار بقربه – في سنوات شبابه المبكرة – لم يبخل عليه بأن منحه ميناءً عظيمًا على شكل صخرة، كي ترسو عليه سفينة عظيمة، كان قَدرها أن ترسو عليه فقط. سفينة منحها بحر الهوى مرورًا آمنًا مستحقًا، لقلب رجل أخلص في الانتظار، بل وأفنى عمره كله فيه!

الفصل الثاني

الرجل الخمسينيّ

(1)

صُدفة.. قابلتها في نفس هذا المكان بالإسكندرية، منذ ما يقارب ثلاثة عقود. كنت أرتدي نفس هذه الملابس التي تراها الآن، والتي قصرت مع الزمن، وأصبحت أوسع بقليل على جسدي الهزيل، وهذه النظارة التي كنت يومها أحجب بها عني بعض أشعة الشمس الحارقة، واليوم أحجب بها عني أشعة أحرف الناس الحارقة، التي تلدغني مثل سوط سوداني، وتلدغني مثل أفعى غاضبة، وأحجب بها عن الناس عينيّ الحزينتين المليئتين بالأسى.

كانت رقيقة حدَّ العصف بمشاعري، وبريئة حدَّ تورطها في سرقة قلبي، وعاقلة حدَّ جنوني بها، وهادئة حدَّ اندفاعي نحوها، وخجولة حدَّ تلك الجرأة المفرطة في أن تتقبلني كما أنا. كان حبًا من النظرة الأولى، من أول لقاء بين عينيّ وعينيها، تقاربنا وتوحَّدنا، وبدأت حكايتنا ولم تنته. هي أحلام؛ رائحة البحر، وبراحه، وصوت الموج المرتطم بروحي!

لم تكن سكندريّة، وأخبرتني أن اليوم الأول الذي التقيتها فيه قد يكون هو يومها الأخير في المكان وبعدها ستسافر. وقتها، وبعد حديث طويل بيننا، عاهدتني أن نلتقي مرة أخرى في صيف العام

القادم، وأنها ستأتي إلى هنا، وفي نفس المكان، وتنتظرني، في نفس هذا اليوم.. هذا اليوم الذي وُلدت فيه، ولم أحيا بعده إلا على أمل أن ألقاها!

مشينا أنا وهي على نفس هذا الرصيف الممتد.. أتذكر اليوم وكأنه كان بالأمس القريب. أتذكر نظراتي إلى عينيها وهي على يميني وأنا ممسك يدها اليسرى، والبحر من ورائها يجعلها لوحة رائعة لا تفارق خيالي أبدًا. كنت أتابع خطواتها الرشيقة على الرصيف، وقدمها التي تكاد لا تلمس الأرض من حركتها الملائكية. أسير مرة أمامها، وتتابع هي خطواتي وتمشي فوقها، وتضع قدميها مكان قدميّ.. وهكذا أنا أفعل، أسرع خطواتي وتسرع خطواتها، حتى أقف فجأة فتصطدم بي، ونضحك سويًا حتى يرهقنا الضحك.

فجأة، يمنحك الحب حنينًا للطفولة، فتلعب معها ولا تتوقفان إلا بأمر التعب. وأحيانًا، يمنحك الحب دور الأبوة المبكرة، فتشعر أنها ابنتك التي تخاف عليها من كل شيء، وتريد أن تمنحها كل شيء دون مقابل، وتتمنى أن تحتضنها حضنًا صوفيًا روحيًا زاهدًا. وهكذا هي، تتقمص – في حبك – أحيانًا دور الأمومة، فتشعر أنك ابنها الذي لم تلده، وقطعة منها تحتويها برفقٍ بالغ.

فجأة، خطرت في بالها فكرة طفولية مراهقة، أن تكتب على صخرة قريبة من الرصيف وبعيدة عن الشاطئ اسمي واسمها، ونجدد ذكرى اللقاء وذكرى الحب في مثل هذا اليوم من كل عام، باعتباره عيدًا نلتقي فيه حتى الموت.. ووعدتني أنها ستأتي إلى هذا المكان

وتنتظرني. وقتها، وبعد معاناة في إيجاد آلة حادة كي ننقش أسماءنا على الصخرة، كتبت هي اسمي – بمطواة اشتريتها من عابر –.. "عُمَر"، وكتبت أنا اسمها "أحلام"، وبينهما قلب يجمعنا سويًا. كنا وقتها بسذاجة الشباب في يقيننا بأننا سنلتقي في نفس هذا المكان العام القادم.. واليوم، أنا بسذاجة الشيخوخة في يقيني بأننا سنلتقي في نفس هذا المكان اليوم. ولكنها حتمًا ستأتي!

كم أتمنى أن يعود بي الزمن، كي لا أفلت يدها من يدي مهما تكن العواقب، وألا أتركها ترحل دون أن أربطها بي رباطًا لا ينقطع أبدًا، رغم أنه لم ينقطع ولن ينقطع، ومازلت انتظر..

ربما انتظاري هذا لها بمثابة محاولة اللحاق بقطار اليقين في محطتة الأخيرة، لكنه أفضل من تسليمي –ولو دقيقة واحدة– لحقيقة أنها لن تأتِ وأننا لن نلتقي، أو أن سِفر تكوينها لا يحمل سَفرًا إليّ، أو أن محطة الوداع لا يمكن أبداً أن تصبح يومًا محطة اللقاء، أو أنها قد تكون نسيتني منذ لقائنا الأول والأخير.

رغم انتظاري المُرهِق والمُرهَق هذا، أستشعر سعادة كبيرة في يقيني بأنها قادمة، وقادمة لا محالة، وأرسم في خيالي صورتها بعد كل هذه السنوات، وأراها بنفس فستانها الوردي الرائع الذي التقتني به يوم تَقابلنا..يوم افترقنا. أرسم صورتها، كما لو أنها فعلًا حقيقة قائمة.. أرسم صورتها وأراها في هذا الأفق البعيد قادمة، تجري إليّ مبتسمة فرحة، مثل طفلة رأت أباها العائد للتو من سفرٍ طويل. أمعن في تذكرها، لأنني على يقين بأننا عندما نتذكر شخصٍ ما بصفة يومية

مستمرة، فإن ثمة رسائل روحية تصل إليه، وتصل بعضًا مما هو منقطع، وتحقق بعضًا مما هو مُحال.

أنا استقبل رسائلها الروحية تلك دون انقطاع، كل تلك الأعوام التي مرّت دون لقاء. أستقبل كل تلك الأحاسيس، رغم المسافات البعيدة بيننا، بيقين ما مضى، وأحلم بها بشكل شبه يوميّ. وأنا على يقين بأنها أيضًا تستقبل منّي رسائل روحية لا تنتهي، خاصةً وأنها أصرَّت ألا تعطني عنوانها خوفًا من أبيها، ووعدتني أن تراسلني هي. ورغم أنها لم تفِ بوعدها لي، إلا أنني على يقين أنها لم تفعل ذلك إلا مضطرة، ومازلت أعوّض حرمانها ذلك بتلك الرسائل الروحية.

أقتل يوميًا فكرة موتها، التي تحوم حول جثة آمالي الجاثمة فوق رأسي كغراب أسود كريه يتخطفها، بأحلامٍ جديدة تولد هنا في هذا المكان كل عام. أحلام، حبيبتي، كنزي الذي لا يفني.. آتي هنا كي أستنشق ربيع العمر معها.. بدونها.. وسط كل خريف الفقد والألم.. وأحاول أن أعوض ما لم يُعوّض، وما قد يُعوّض!

آه.. كم تمنيت أن أقطف من بستان بسماتها ما يصبرني على حزنٍ كبير، ومن بستان كلماتها ما يعزّي فراغ السكوت المريب، ومن بستان إحساسها ما يكفي مخزوني الاستراتيجي منها، هي وحدها؛ المزدحمة بها وحدتي، والممتلئ بها فراغي!

أستعيد بسماتها وكلماتها في لقائنا الأول والأخير، وألقيها في بحر صمتي ومياه قلقي الراكدة وتوجُّساتي الراقدة على حافة نافذة قطارالانتظار في محطته النهائية، فتستحيل كلماتها بحر صمتي إلى موج

كلمات عاطرة تنعش مخيلتي، وتستحيل مياه قلقي إلى شَربة راقية تمنحني طمأنينة، وتقتل توجساتيَ وتُثري انتظاري بأمل جديد متوهج.

هي قد تأتيَ.. هو احتمال ضئيل!

نعم احتمال ضئيل؛ لكنه كفيل بأنه يمنحني متسعًا من الأمل، وبراحًا من الفرح، وكثيرًا من الحلم، ومزيدًا من التمنّي..

نعم هو احتمال ضئيل.. لكني أواجه واقع الزمن المر بهذا الاحتمال الحلو، وأعيش هذا العمر بأكمله بإحباطاته وخيباته وهزائمه على تلك اللحظة التي وَلدت الأمل داخلي حتى انتشيت، ومنحتني انتصارات لا تفنى ولا تستحدث من العدم.

نعم هو احتمال ضئيل.. لكني أخلص في إيماني به، وأمارس شعائره كاملة، حيث أحجُّ في نفس هذا اليوم إلى قِبلتها هنا كل عام من أجلها، وأصوم عن كل شيء ماعداها طوال العام، وأزّكي نفسي بمجرد تذكرها، وأصلّي حبها بلا انقطاع، وأشهد ألا حب إلا حبها، وحدها لا شريك لها في قلبي، دون كل البشر، كي أكمل فريضة حبها وأتممها، وأكمل إيماني بها!

أنا أخلصت في انتظارها قبل أن تأتيَ، وصَدق انتظاري وأتت.. وأنا الآن أخلص في انتظار جديد، لعلّها تعود إليّ مرة أخرى!

***

الشاب يبكي بحرقة، ويتنهد، ويتعجب من هذا الإخلاص النادر، وهذا الإحساس الملهم، وهذا الرجل الخمسينيّ الوفيّ، الذي خاف منه

في البداية، رغم أنه كان أولى به أن يخاف عليه.. ويسأل الرجل الخمسينيّ بصوت خافت:

-وإيه إحساسك لو كانت مش هتيجي تاني أبدًا؟!

فتدمع عينا الرجل، ويخبره بأنها سوف تأتي.. سوف تأتي.. ويكررها مرات أخريات. يعلو صوت الرجل الخمسينيّ، وتعلو نبرته حزنًا وحزمًا وشدةً وتحذيرًا، ويقول له:

-متقولش كده.. أوعى تقول كده.. أحلام جاية.. لازم هتيجي!

يكررها الرجل الخمسينيّ أكثر من مرة، وترتعش يداه أكثر، وتدمع عيناه كطفلٍ رضيعٍ يعتصره غياب أمه، ويكمل حديثه للشاب:

-إنت مش هتحس بلذة لقائي بروحها هنا في عيد لُقانا، حتى لو كان عندي يقين إني مش هشوفها، وإنها مش هتيجي، لأنك مش متخيّل يعني إيه أخلف وعدي ليها وأنسى ومجيش هنا تاني.. مقدرش أخلف وعد بيساوي بالنسبالي حياة، الموت بس اللي هيمنعني من إني أخلف وعدي ليها!

ويستدرك الرجل حديثه..

-وحتى الموت مش هيمنعني لأني هموت قبلها، أنا بدعي ربنا إني أموت قبلها، لأن بعدها مش هيكونلي سبب واحد للحياة.. أنا بقابلها كل يوم في أحلامي، بكلمها، وبطمّن عليها وبقعد معاها، بشوف ضحكتها الجميلة، وبشوف اللمعة اللي في عنيها اللي بتنوّر قلبي، بشوفها كل ليلة في أحلامي حتى لو كانت الأحلام دي بتنتهي

نهايات غير سعيدة زي الواقع اللي عايشه، مش مهم، الأهم إني بشوفها!

يهز الشاب رأسه في حضرة تلك الكلمات، بصمت مطبق ودمع مختبئ، فيكمل الرجل حديثه وسط ارتجافات لا تتوقف ودمعات مستمرة، ويخبر الشاب أنه مازال صغير السن كي يستوعب ما يقوله رجل خمسينيّ، وأنه لن يفهم شعوره هذا لأنه يشبه هذا المجتمع المادي، الذي يعتبر حَمل وردة أمرًا يدعو لنظرات الاستنكار الممزوجة بالسخرية، ونظرات التعجُّب المحشوّة بالإعجاب، ونظرات الاستغراب المخبوزة في فرن التطُّفل، وكلمات الاحتقار المُشرّبة في ماء مُحلى بالسكر المالح والعسل المر من العابرين. ويباغته قائلًا:

-تعرفوا إيه إنتم عن الحب؟! إنت حبيت قبل كده؟!

فيهز الشاب رأسه إيجابًا، بأنه يحب زميلة له في الجامعة تدعى شيماء، وأنه حزين لأنها ليست قاهرية مثله، وأنه يكره الصيف لأن به أجازة العام الدراسي، وأن تلك الأجازة تجعله يراها كل فترة بعد أن كان يراها كل يوم، لكنه يُعوِّض ذلك بأنه يتواصل معها يوميًا من خلال الهاتف أو عن طريق الإنترنت

يحاول الرجل الخمسينيّ أن يهدأ قليلًا، وأن يخرج من سيرة الماضي الحزين، وأن يهرب من سجن الألم المُبرِح، ويبادر الشاب مبتسمًا بسؤال عن اسمه

-حديث الذكريات خلّاني أنسى اسألك عن اسمك

-اسمي عمر.. عمر الشرقاوي

يبتسم الرجل الخمسينيّ، ويخبره بأنه أيضًا اسمه عمر، ويخبره بأنه يحب اسمه للغاية، لأنه على اسم أعدل مَن خلق الله، الفاروق عمر رضي الله عنه، بل وأن اسمه قريب الشبه من اسم الفاروق، اسمه عمر خطّاب، من مدينة دمنهور بمحافظة البحيرة، ويباغته قائلًا:

– تعرف فين دمنهور دي؟

– أيوة حوالي نص ساعة أو أكتر شويّة من إسكندرية، بعدّي عليها وأنا جاي من القاهرة لإسكندرية أكيد.. يا بخت حضرتك قريب من إسكندرية بقى وكده

– معدش حد بعيد يا عمر بعد ثورة الإنترنت والفيس بوك، بقى كله قريب والعالم معدش قرية صغيرة لكنُّه بقى شقة صغيرة

يضحك عمر، على توصيف الرجل الخمسينيّ، ويُفاجأ من كونه يعرف شيئًا عن الإنترنت، ويسأله:

– أيوة.. هو حضرتك تعرف الفيس بوك؟

– طبعًا.. عندي ابن أخويا أصغر منك وداوشني كل يوم بالفيس بوك وبالإيميل، ودي يعني إنبوكس، ودي يعني نوتفكيشن، وإلحق يا عمو بص الصورة اللي عالفيس دي، وإلحق يا عمو بس اللعبة دي، وإلحق يا عمو بص المزرعة السعيدة، ألا هي ليه مزرعة سعيدة يا عمر؟ هوّ في مزرعة حزينة؟

– هههههه أنا مش بلعبها والله حضرتك، دي مزهقاني من كتر الناس اللي أعرفهم بيلعبوها، وبعدين عادي زي ما في مزرعة سعيدة ومفيش مزرعة حزينة، في جبنة قديمة ومفيش جبنة جديدة

يضحك الرجل الخمسينيّ للمرة الأولى كأنه تناسى للحظات همّه الثقيل، يضحك حتى تدمع عيناه من شدة الضحك على كلام عمر الذي يباغته بسؤال آخر

– هو حضرتك درست إيه؟

– آداب قسم لغة عربية.. وإنت يا ابني؟

– أنا بدرس حقوق في جامعة طنطا، وبحب اللغة العربية جدًا لأن القانون زيّ ما حضرتك عارف جزء كبير منه تمكُّن من اللغة

– أكيد.. ربنا يوفقك يا عمر.. وهتشتغل محامي بقى؟

– هي مهنة صعبة والنجاح فيها مش سهل بس أنا بحبها بصراحة.. وحضرتك شغال إيه؟

– أنا كنت بشتغل مدرس وكنت بدّي دروس، بس ماستمرتش في ده، وعايش على إيراد شقة مأجرها في وسط البلد في دمنهور بتجيلي دخل مريح كل شهر الحمد لله.. بس قوللي بقى إنت بتحب شيماء؟

– طبعًا، بحبها جدًا، بس هي بتغير عليّا أوي، لدرجة إنها ممكن لو شافت بنت بتكلمني ممكن تشدها من شعرها، وسوري في اللفظ يعني وتشردحلها قدام البنات، والغيرة أنا بحبها بس لما تبقى بالشكل ده بتبقى أوفر أوي وكمان تضايق

– معلش يابني، طبطب عليها واحتويها، الحب الحقيقي لو ضاع مش بيرجع، أنا نفسي لو أحلام ترجع وان شالله تشردحلي قدام العالم كله وعلى الهوا كمان.. بس ترجع وأشوفها تاني، ولو مرة واحدة بس، نفسي أشوفها حقيقة مش حلم.. قدّر اللي بتعمله شيماء بدون

زعل وقوّمه، تبّت فيها وحاوط عليها لاحسن تضيع، واللي بيضيع مش بيرجع تاني يا ابني، أو بيرجع بعد ضربة وجع كبيرة، ضربة ممكن تساوي عمر كامل

يبادر عمر العشرينيّ عمر الخمسينيّ بسؤال آخر، قائلًا له:

-بس أنا فعلًا عاوز أعرف هو حضرتك بتحلم بحبيبتك أحلام كل يوم؟!

يأخذ الرجل نفسًا عميقًا، ويُجيب عمر قائلًا:

-أنا لو أطول أحلم بيها وأنا صاحي والله هحلم، المهم إني أشوفها وأكلمها وخلاص، أيوة يابني بحلم بيها كل ليلة تقريبًا، بشوفها وبعيش معاها وبحلم إني مصحاش، وبحلم يكون آخر الحلم أجمل من الواقع، لكن محدش بيختار حلمه اللي بيحلمه لما بينام زي ما محدش بيختار إن الواقع بتاعه يكون عبارة عن كابوس طويل!

(2)

ما يلبث أن يصبح الرجل الخمسينيّ وحده على صخرته، حتى ينظر في الأفق ويدعو الله أن يرزقه بلقاء أحلام. هو لا يكف عن الدعاء، ويشمّ رائحة الوردة المتوهجة الجمال التي يمسكها بيده، ويُقبِّلها قُبلَة رقيقة، وما يلبث أن يلتفت يمينًا، حتى يجد أحلامه تمشي على الأرض!

يركز النظر أكثر ولا يصدق، يشعر أن ذلك مجرد سراب، مثل الذي يُخيل للظمآنين في الصحراء الموحشة، يخشى أن يجدها سراب بمجرد أن يجري إليها تختفي، ينظر أكثر، فيجدها تكمل المسير نحوه، تقترب أكثر، ويظهر وجهها المضيء أكثر، ويلمع فستانها الوردي أكثر، وتبتسم ابتسامة كفيلة بأن تمنح قلبه نبضًا جديدًا..

يقوم عمر مسرعًا، ويقفز من فوق الصخور مجتازًا السور الخفيض، ثم يجري فوق الرصيف بجنون عاشقٍ أرهقه الانتظار، وأحلام تجري نحوه أكثر، يقتربان أكثر، أكثر، يحضنها عمر حضنًا يكاد يذيبها داخله، يلتحمان، يحملها في حضنه ويلف بها في دوائر، يلف أكثر كأنه راقص تنورة محترف يغمره التصوف والهيام، ثم يهدأ ويتوقف تدريجيًا عن الرقص، ويسير معها حتى الصخرة ممسكًا يدها ولا يتركها حتى بعد أن يجلسا على صخرتهما المُحبَّبة، تلك الصخرة رفيقة الدرب الطويل!

-كنت عارف إنك جاية، وعارف إنك مش هتخلفي وعدك ليّا.. ليه اتأخرتي كل ده عليّا؟ ليه حرمتيني من إني أشوفك كل العمر ده يا أحلام؟..

-مش بإيدي.. سامحني.. أرجوك تسامحني يا عمر.. والله كان نفسي ما اتأخرش كل ده.. بس خلينا ننسى السنين اللي ضاعت بمرها وحزنها.. ونفكر في اللحظة الحلوة دي وإننا مع بعض يا عمر

يقترب منها أكثر، ويضمها في حضنه، ويسمع نبضاتها العالية وتنهيداتها المغرورقة بدمعاتها. يضمها أكثر، وكأن في الضَمَّة حياة، كأنه في كل ضغطة على ظهرها يضغط على قلبها الذي اعتصره الألم لسنوات حتى أصبح بلا نبض، ويعوضها حيوات مضت بطعم الموت، يضمها أكثر فتبكي أكثر، ويقول لها:

-حضنك حياة بأكملها، فرح ودموع وشوق وخوف.. كل حاجة، حضنك كلام حلو ساكت أنا بس اللي بسمعه، حضنك ملكوت

-خليه حضن كله فرح وشوق بس يا عمر، وكفاية دموع وكفاية خوف

-دي دموع الفرح يا أحلام.. وخوف عليكي مش منك

-بحبك يا عمر

-يا الله.. كأنك بتغسلي روحي لما بتنطقي إسمي... قوليه تاني

-عمر عمر عمر

تبتسم أحلام بخجل رقيق، ويضحك عمر ضحكات تقفز فوق كل سنوات الفقد والألم، يحتضنها أكثر كأنه يريد أن يجعلها بداخله، أن تقتحم ضلوعه كي تستقر في مكانها الطبيعي، حيث قلبه الذي عاش لها ومات فيها ومن أجلها، واليوم تمنحه هي قُبلة حياة. تمسك يده وتقبلها، ثم يفلتها عمر كي يمسح دمعاها، ويقول لها:

-مش قولتلك كفاية دموع يا أعز الناس

-ياه يا عمر.. مش كفاية.. فداك دموعي.. ولو كنت عارفة إن دموعي دي هتكون سبب إن ربنا يجمعني بيك كنت بكيت أكتر، كنت مليت الدنيا دموع أكتر

-سلامتك من الدموع يا أحلام

يذكرها بالمطواة التي كتبا بها اسميهما ورسما قلبًا بينهما.. وتضحك، وتذكره بالدم الذي سال منه عندما أصابته المطواه في إصبعه

-فاكرة طيب لما إنتي عوّرتي نفسك بعدها وقولتيلي عشان إحنا الإتنين نحط دمنا على دم بعض عشان دمك يجري في عروقي ودمي يجري في عروقك، وقولتلك إنك مجنونة وقولتيلي مجنونة بيك

تضحك أحلام ضحكة تشق هذا الصمت المريب المحيط بهما، ضحكة تولد بين هذه الأمطار العاتية من دموعها التي لا تكف عن الهطول، وتجيبه قائلةً:

-فاكره طبعًا.. دمك هو اللي لحد دلوقتي مديني النبض والحياة يا عمر، هو اللي خلاني استحمل كل سنين البُعد

-بس انت مكنش عندك دم خالص يا أحلام

-إيه؟!

-أقصد يعني كانت تعويرة صغيرة مش أدّ تعويرتي يعني

-إيه؟!

-جرح معاكي، أكيد تعويرتي أكبر لأن حبي أكبر، ووجعتيني لما عوّرتي نفسك، كأنك جرحتي قلبي مش صوباعك يا أحلام

-فداك يا عمر، فداك يا حبيبي.. وبعدين فين الوردة الحمرا بتاعتي بقى

-وردة إيه؟

-كمان مش فاكر يا عمر

-أيوة الوردة اللي اشترهالك أول يوم اتقابلنا فيه.. أول ما يعدي حد بيبيع ورد هجيبلك أجمل وردة يا أحلام..

-تسلم يا حبيبي

-وبعدين إنتي أجمل وردة في الدنيا

-تسلم يا عمر

-إنت اللي أجمل نعمة ربنا أنعم بيها عليّا، واتحرمت منها عشان أتعلق بيها أكتر وأحبها أكتر وأحس بقيمتها.. ربنا أوقات بياخد مننا حاجة حلوة عشان يعلمنا حاجات كتير من أهمها إننا نحافظ على كل حاجة حلوة في حياتنا: لأن الحلو لو راح مش بيتعوض، وحبك حاجة

حلوة متتعوضش وماهاش زيّ، إنتي يا أحلام الحاجة الحلوة اللي ربنا بيصالحني بيها على كل حاجة وحشة، ربنا بعتك تاني ليا عشان يصالحني على كل اللي فات، ويطبطب عليّا بيكي، إنتي هدية ربنا بعتهالي والمرادي مش ممكن أفرط فيها تاني أبدًا ولا أسيبها تغيب عني تاني أبدًا

-أنا معاك وجنبك وفي قلبك ومش هغيب تاني أبدًا يا عمر

ينظر عمر للفضاء المواجه له خلف هذا البحر، هذا الفضاء الذي طالما رأي أحلام تأتي له من خلفه على ظهر مركب. ينظر ولا يصدق أن أحلام تضع رأسها على كتفه، وأنها بالفعل بجانبه. يواري دمعة في عينيه يأبى أن تنزل في حضرة الفرح كله، ويواري القلق الظاهر على وجهه من أن يفقد أحلام من جديد، ويقول لأحلام:

-خايف أصدق يا أحلام إنك مش هتضيعي.. أول مرة صدقت وضيعتي

-اللي جمعنا قادر ميفرقناش يا عمر

-ونعم بالله.. ونعم بالله يا حبيبتي.. عارفة يا أحلام رغم إني أكبر منك بكام سنة، بس بحس في وجودي معاكي إني ابنك

-وأنا بحسك بابايا ياعمر، بحس معاك الحب والأمان والحنان والاحتواء، البنت مش بتحلم بأكتر من أمان وحنان واحتواء، وأنا حسيت كل ده معاك يا عمر، إنت الحلم اللي عيشته وضاع، والحلم اللي عايشاه وخايفه دلوقتي إنه يضيع تاني، بس أنا لازم أقوى بيك

ومخافش، ولازم اقولك متخافش، لأن رحمة ربنا أوسع بكتير من نظرتنا الضيقة للأمور

-أكيد يا أحلام، وإنتي النور اللي بينوّر حياتي، والسنين اللي كنتي فيها بعيدة عني كانت س ين ضلمة وعتمة، كنت كفيف!

تقاطعه أحلام رافضة التوصيف، وتطالبه ألا يصف نفسه هكذا، لأنه هو الضيّ الذي استمدت منه نور عمرها الماضي والقادم، فيقول لها عمر:

-ما هو أنا ربنا ابتلاني بالضلمة والعتمة عشان أقدر أحس بقيمة نورك، كأني كنت مغمض، مش شايف حد، مش شايف غيرك، كنت مغمض عشان أقدر أشوفك أحسن، وأحسك أكتر، كنت بشوفك جوايا مش برايا، بشوفك جوا الكون اللي اسمه عمر مش جو الكون اللي اسمه العالم!

-أنا نفسي اللحظة اللي بتجمعنا دي متمشيش، نفسي تقف زي بالظبط الساعة اللي قبل الفطار في رمضان لما مش بتمشي خالص، نفسي اللحظة دي تبقى كده، ونفسي أجرى وإنت تجري ورايا

يضحك عمر، ويخبرها أن يحب ترديد اسمها مرات ومرات، لأنه في كل مرة ينطق اسمها يشعر أن قلبه يرفرف فرحةً. يشعر أن مجرد ذكر اسمها وطن يعوض فيه طول غربته وهول فقده لسنوات، يقول لها:

-عارفة يا أحلام، مجرد إني أنطق اسمك وطن، ضحكتك وطن، فرحتك وطن.. إنتي بالظبط زيّ شوية ميّه كانوا في إيد واحد

عطشان، اللي هو أنا يعني، ومن كتر احتياجه ليهم حَبّ يمسك فيهم أوي، ففلتوا من بين صوابعه ووقعوا ومعرفش يلمهم تاني. إنتي شويّة الميّة اللي فيهم حياتي، وبقالي سنين بحاول ألملمك عشان ترجعي بين كفوفي وتروي الشقّ اللي فيهم، وقبلهم تروي قلبي اللي عطشان اسمك وسيرتك وصوتك وضحكتك وكيانك كله

-أنا اللي عطشانة إحساسي بالحياة، إحساسي بوجودك جنبي، عطشانة أغمض عيني وأمشي وأنا عارفة إني مش هقع، عطشانة أتسند عليك، وتحلّي بقربك كل طعم المر اللي دوقته وإنت بعيد

-من النهاردة مفيش مر يا أحلام.. من النهاردة كل حاجة حلوة جايّة، وهنعوض كل الوقت اللي ضاع مننا في انتظار وألم، هنعوضه فرح وأمل

-إنت الأمل كله يا عمر

-وإنتي أمل عمر يا أحلام

-ياه.. كان واحشني أوي أضمّك في حضني أوي كده، وأحس دقات قلبك بين ضلوعي، وأشمّ نفَسِك، واطبطب عليكي يا أحلام

-طاب متحضنيش جامد كده يا عمر لأفلت من بين صوابعك تاني!

يضحك عمر ويحاول أن يكسر حدة القلق الخجول، فيخبرها بأنه يريد أن يكررا ما فعلاه في لقائهم الأول، حين كان يسير أمامها وتسير هي خلفه، فوق خطواته، كأنها طفلة تتعلم المشي، ويسير

أسرع، وتسير هي أسرع، حتى يقف فجأة فتصطدم به، ويضحكان حتى يقعا سويًا على الأرض.

وبالفعل، جذب عمر يدها وقاما، وبدأ يسير أمامها، وهي تسير خلفه فوق خطواته، حتى بدأ يسرع خطواته، وهي خلفه تسرع معه إليه، حتى يقف فجأة فتصطدم فيه، وتضحك، ويضحك هو، ضحكات طفولية صاخبة، ويكملان السير، يحدثها وهي ترد، وفجأة يسرع هو، يسرع أكثر، يحدثها وترد، ويسرع أكثر، أكثر، ويحدثها.. فلا ترد..

ويلتفت وراءه، فلا يجدها!

يبكي ويبحث عنها في كل مكان؛ كأنه طفل بالكاد فقد أمه.. يجري ويبكي وينادي اسمها بصوت متحشرج..

ينادي عليها: "أحلام.. أحلام".. كأنه لاجيء طُرد للتو من جنة وطنه..

يصرخ بأعلى صوته "أحلام.. أحلام.. أحلام".. وهي لا تسمع، ولا ترد!

يجد عمر صدى ندائه صامتًا لا يحرك ساكنًا، يشعر أن الكون كله يتكاتف ضده، وأن الكون يخبئها خلف هذا المجهول أمامه، يظنها أبعد من هذا الظلام القريب البعيد. بعد كل تلك المسافة من الوجع، يفكر في أنه ربما لو عاد إلى المكان الذي كانا يجلسان فيه فسوف يجدها، فيجري أسرع على أمل أن يجدها، وبالفعل يعود إلى المكان، ولا

يجدها. يحاول أن يجد النقش على الصخرة، فيجد الصخرة ولا يجد النقش.. يفتش في جيبه كي يجد المطواة، فلا يجد المطواة.. يحاول أن يتذكر عما كان يبحث، فلا يتذكر.. يسأل نفسه عن نفسه، فلا يجد ردًا!

يضحك ضحكات صاخبة تكسر الصمت المريب المحيط به من كل الأرجاء، ثم يبكي، ثم يجري ويقف فجأة. يحاول تمثيل اللعبة من جديد، كأن أحلام تلعب معه. ينادي عليها، فيسمع صوتها.. يفرح، يهلل فرحًا كأنه طفل يلعب مع رفاقه يوم العيد، ويفكر للحظة أنه لو أكمل اللعبة فلن ترد. يلتفت فجأة كي يمسك بها قبل أن تقفز في متاهة البعد، ويحاول أن يتلقفها، ولكن لا يجدها.. ينادي عليها، ولا ترد نداءه.. يفتش عنها في كل مكان، ولا يجدها، ويفقد أثرها. يصرخ بأعلى صوته "أحلام.. أحلام.. أحلام".. وهي لا تسمع، ولا ترد.

الفصل الثالث

العقل الباطن.. العقل الباطل!

(1)

أستيقظ من نومي كلما حلمت بها، ويتكرر نفس الحلم معي مرات ومرات. أحاول في كل مرة أحلم فيها بهذا الحلم أن أُرغم عقلي الباطن ألا يطلب منها تكرار لعبتنا الطفولية، كي لا تسير هي خلفي وأفقدها، وتضيع مني في غياهب الجب. في كل مرة أحاول أن أجبره أن يجعلني أطلب منها أن تسير هي أمامي، وأتابعها وأتتبعها أنا، وأسير فوق خطواتها، حتى إذا أسرعت خطواتها لحقت بها ولم أفقدها. في كل مرة أحاول جاهدًا أن أفعل ذلك؛ ولكن يُخرج عقلي الباطن لي لسانه، ويهزمني!

وماذا سوف يؤلم رجلًا بهزيمة أخرى جديدة صغيرة، وحياته مليئة بالهزائم الكبرى؟ هي مجرد هزيمة أخرى، وليست أخيرة!

ورغم كل ذلك، مازلت ممتنا لعقلي الباطن أنه منحني رؤيتها، ودبّر لي لقاء معها تمنيته سنوات ولم يتحقق. مازلت ممتنا له أنه فعل ما لم أقو أنا على فعله بأن أراها مرة أخرى، كي لا أتركها ترحل هذه المرة. عقلي الباطن معذور، هو مضطر أن ينقل توجساتي وأوجاعي ولا يخلقها، هو مجرد ناقل لها. لذا، لا لوم عليه، إنما الأولى أن ألوم

على نفسي. يكفيه أنه يُعيد لي رسم البدايات التي تمنيتها، ولا شأن له بالنهايات التي هي بالضرورة فرضت علينا، أو بالأحرى أنا المتسبب فيها، وليس عقلي الباطن.

ألوم عقلي الباطن على ذنب لم يقترفه، وألوم أحلامي الناقصة على أحلام الغائبة الحاضرة، والحاضرة الغائبة، القادمة إليّ الراحلة عني، وألوم القدر على كل السنوات التي جعلتني أنا وهي يسير كل منا في اتجاه مختلف بأسرع ما يمكن، ولا ألوم نفسي على أنني تركتها تمشي يوم أن تقابلنا.. أنا وحدي مَن يستحق اللوم، الكل بريء وأنا وحدي المتهم، ولعل سجني هذا الذي أعيش فيه لسنوات هو عقاب مخفف لرجل كان يستحق الإعدام، لأنه ترك حب العمر يرحل، بكل سهولة هكذا..

ترحل؟!.. أتركها ترحل؟!.. أنا بالفعل أستحق الإعدام!

وهل أنا لم يُنفذ فيّ حكم الإعدام؟!

وهل أنا لم أمت بعد كل ذلك الموت؟!

كيف ذلك، وأنا في كل يوم أُعلّق روحي على مشانق ما مضى، وأشتري من ثاني أكسيد الكربون ما يكفي نَفَس الأكسجين الأخير، وأُحسن شدّ الحبل حول رقبتي وأحكم قبضتي عليه، وأزيح الكرسي من أسفل قدمي وأدفعه، كي أنزل إلى الأسفل وأرتقي إلى الأعلى، كي تنفلت روحي مني إليها، فأموت أنا وتحيا روحي بها؟!

يا الله.. حتى في إعدامي المتخَيّل، خيالي ضعيف هزيل، ومشهد إعدامي مشهدًا كلاسيكيا تقليديا، ليس به إبداع ولا روح تليق بحجم ما أعدم لأجله!

أنا أستحق إعدامًا أفضل من هذا.. إعداما يليق بعاشق ضعيف، أفلَت من بين يديه متنفس الحياة الوحيد، وغلّق كل منافذ الروح حتى باتت منكسرة تزروها الرياح.. أنا أستحق موتًا أفضل من هذا الموت الذي أعيشه.

يا الله.. حتى الموت بت لا أستحقه كما أتمناه، وأصبح مثل الحياة التي أعيشها كما لا أتمناها، حياة بطعم الموت، أو موت اسمه الحياة!

أفكر جديًا في جدوى الانتحار، ولكن خيالي المريض مازال عاجزًا لا يمنحني انتحارًا يليق، ولكني أفكر أكثر.. أحلام لم تمت، فلماذا أموت وأتركها، حتى وإن تمنيت أن أموت قبلها؟

لا.. لا يجب أن أموت، يجب أن أعيش كي أراها، كي تتحقق المعجزة وتنتشي روحي، وتعود الحياة إلى قلبي وقلبها.

آه.. تذكرت أن خيالي يستحق التحية، لأنه لم يمنحني مشهد إعدام يليق، فأندفع إليه وأنسى ما هو أهم من موتي، حياتها، وحياتي معها؛ لذلك فأنا ممتن لخيالي أنه لم يمنحني مشهدًا انتحاريا بديعا، يستهويني أن أنفذه، فأبعد عنها أكثر، وأنا لم أعد أطيق ولا أحتمل!

إذن أريد أن أدوِّن في أجندتي الخاصة ثلاث رسالات جديدة..

الرسالة الأولى: اعتذار لعقلي الباطن، لأنيأسأت الظن به وأهنته، وهو مظلوم وأنا الظالم. ورسالتان مليئتان بالاعتذار إلى خيالي؛ مرة لأنه تفّه مشهد الإعدام، فلم أقدم عليه -وبالتالي لم أترك أحلام على ظهر الأرض وأصبح أنا تحت الأرض- وبرغم ذلك أهنته. ومرة لأنه خبأ عن ذهني كل مشاهد الانتحار البديعة - فمنحني فرصة أن أحيا على أمل أن ألقاها، وهو أمل يساوي حياتي - وبرغم ذلك اتهمته بالخذلان والكسل.

في أجندتي، ثمة رسائل كثيرة، ورباعيات كتبتها لأحلام، وكذلك سجّلت فيها هواجسي وألمي وأملي، وكتبت فيها تفاصيل حكايتي مع أحلام.

في أجندتي رسالة اعتذار أخرى. اعتذار مني للمطواة، لأنني خدشتها بنقشي على الصخرة الصلبة، حتى شوهّت جزء منها. وهي مطالبة باعتذار لي، لأنها جرحت إصبعي.. اعتذار متبادل، إذن أنا والمطواة متساويان، ليس في أن كلانا جزء منه مشوّه، ولكن لأن كلاً منّا مَدين باعتذار للآخر.

وبعد تفكير، أتذكر أنني ممتن للمطواة، وأنني مطالب برسالة شكر لها قبل رسالة الاعتذار. أشكرها لأنها منحتني فرصة أن يختلط دمي بدم حبيبتي أحلام.. يا الله! كم كانت لحظة رائعة جميلة، حين شعرت بأن كرات دمها بدأت في السير نحو الهدف، نحو قلبي.. كم هو إحساس جميل أن أستشعر دمها يسير داخلي..

وكلما فكرت أكثر، أجدني أطالب المطواة باعتذار آخر، لأنها وافقت أن تُجرح بها يد حبيبتي أحلام؛ حتى وإن كانت تلك رغبة أحلام، وأنها الجانية والمجني عليها، وأن المطواة مجرد أداة ووسيط لا حول له ولا قوة؛ ولكن لماذا قبلت المطواة أن تكون ضعيفة خاضعة؟ وأفكر أكثر، فأجدني من ناحية متسامحًا متصالحًا مع المطواة، ممتنا لما فعلته لي أكثر مما فعلته ضدي، ممتنا لما أسعدتني به أكثر مما آلمتني به.. ومن ناحية أخرى، أجدني أشبهها وتشبهني في أمر آخر، غير ما شُوه منا، وهو أنني والمطواة مجرد أدوات ووسائط ضعيفة خاضعة، قبلنا أن نصبح مفعولا به، ولم نجرؤ أن نصبح فواعل.

في أجندتي أيضًا.. مدون رسالة اعتذار للوردة الحمراء، التي اشتريتها كي أسعد أحلام، وفرحت هي بها للغاية. منحتنا الوردة حياة ولحظة سعيدة، وماتت هي.. ماتت راضية أنها منحتني وأحلام سعادة كبيرة، وعشت بعدها أنا وأحلام، حياة بطعم الموت البطيء.. ماتت الوردة لتحيا وردتي، وضاعت وردتي لأموت أنا..

في أجندتي أيضًا، رسالة شكر مطولة لخيالي، الذي لم يبخل عليّ بشعر مرتجل لها، وقت أن أخبرتها بأنني أكتب الشعر، وأنها أجمل قصيدة رأيتها.. قصيدتي أنا، التي أراها وحدي بعينيّ، قصيدة لا تُكتب ولكني أقرأها ولا يقرأها غيري.. فأنا كتبت الشعر لها فقط، حتى قبل أن أراها، في رحلة البحث عنها.

"بدوَّر عليها

جوّا البحور بين الصَدف

وأتمنى تجمعنا الصُدف

وآلاقي قلبي بيتخطَف

وسابني قلبي وراح ليها

يشهد على الحب القمر

وحتى أوراق الشـجر

حبيبتي يا كل البشر

يا كل الدنيا وما فيها"

فرحت أحلام وقت أن أخبرتها بذلك، وفرحت للغاية لكوني شاعر، وترجتني أن أسمعها قصيدة شِعر مرتجل لها هي، هي فقط. وحاولت أن أستميحها عُذرًا من أنها قد تخرج قصيدة ركيكة وضعيفة ودون المستوى، ثم أنها بكينونتها تلك أجمل وأرق من أي حروف قد تُعبِّر عنها. أتذكر القصيدة جيدًا، والتي ارتجلتها لأحلام، بعد إلحاحٍ رقيق..

"يا أحلام عمري اللي جيً

إتولد حبك هنا

إنتي نورِك ليّا ضيّ

للأماني الممكنة

وشوفت روحك مالها زيّ

يا جميلة.. وفاتنة!

يا أحلام عمري بحاله

مهما فاتت أزمنة

إنت حبك هو حالُه

إنتي حبك.. المُنى

وإنتي أجمل حلم جاله

روحي بيه مطمنه!"

كانت تلك الأشطر المرتجلة كفيلة بأن تمنحها سعادة بالغة، رغم أنها قصيدة عادية وليست في روعة مَن نطقت لأجلها تلك الأحرف، ولكنها فرحت بها لدرجة أنها كانت تكتب ما ارتجل، وكتبت

القصيدة في مساحة فارغة من كتاب كانت تحمله في حقيبة يدها، وطلبت مني توقيع تحت الكلمات، أبدأه بكلمة موجزة لها بخطّي.

ارتبكت من طلبها، وشعرت أنني نجم تطلب معجبة منه توقيعا تحتفي به وتفتخر به وسط صديقاتها المراهقات. وللحظة أخرى، شعرت أنها هي النجمة، وأنها كتبت كلماتي بخط يدها تكريما لحروفي، تلك المحظوظة بأن تولد من لساني وبيد حبيبتي أحلام.

فكرت كثيرًا في كلمة أختمها بتوقيعي الذي طلبته..

كتبت لها: "إهداء إلى أحلام، التي سوف أحارب العالم كي أحققها، أحلامي أنا ،، عمر"

فرحت أحلام للغاية بهذه الكلمات العادية، كما فرحت بقصيدتي المرتجلة القصيرة العادية..

بعد كل هذه السنوات، أجدني لم أحقق أحلامي، ولم أعيش مع أحلام، واكتشفت أنني لم أحارب العالم منذ أحببتها، ولكن العالم بأكمله كان هو مَن يحاربني ويصر على هزيمتي، هزائم تلو الأخرى، وأنا لا أقبل أي هدنة ولا أي حلول وسط. لن أقبل بحالة اللاحرب واللاسلم، سوف أقبل أن أمنى بهزائم عدة، من أجل انتصار كبير.

سوف أنتصر على العالم يا أحلام يوم أن تعودي لي من جديد، وسوف تعود لي هويتي التي أخذتها معكِ ورحلت، وتركتني لاجئًا لا أرض لي، مادمت لا تطئينها، ولا حياة لي مادمت لست فيها.. أخذت

معكِ كل شيء جميل، وتركتِ لي فقط تلك الذكرى التي أقتات عليها وأعيش بها وتعيش فيّ!

في أجندتي مزيد من الرسائل، منها رسالة اعتذار أخرى إلى الصخرة.. تلك الصخرة التي لو حكت لاشتكت، ولو اشتكت لبَكت.. هي الوحيدة التي شهدت تفاصيل اللقاء الذي غيّر حياتي، بل وشاركتنا احتفالنا بهذا اليوم بأن تحملتنا فوق ظهرها دون أن تلفظنا أو تحتج، وتحمَّلت حروفنا المثقلة بالذكرى دون ضجيج. أنا ممتن لها برسالة اعتذار، لأنها قبلت أن نشوهها بالمطواة ونجرح ظهرها، وهي قبلت ذلك وكأننا نُزيّنها. ممتن برسالة اعتذار أخرى للصخرة، لأنني أتركها وحيدة طوال العام، ولا أزورها إلا يومًا واحدا فقط.. أهجرها ولا أتذكرها إلا وأنا أعيد ترتيب الماضي، من أجل اليوم الذي أحتفل فيه بعيد اللقاء.

(2)

في أجندتي رسالة اعتذار طويلة لإنسانة أخرى غير أحلام، هي زوجتي في الظاهر وأمام الناس فقط وأمام القانون.. إنسانة أحبتني، فتزوجتها لأنها تحبني. كان هذا سببًا كافيا كي أقفز فوق كل الهمز واللمز بالتأخر في سن الزواج، بأن أتزوج منها. وهي كانت تعلم ذلك.. تعلم أنني لا أحبها، ولكن حبها لي كان أهم عندها، وكانت تمنياتها بأن الحب قد يأتي بعد الزواج كفيلة بأن تمنحها قبول مثل تلك المعادلة الظالمة.

الحب لا يأتي بعد الزواج، ولكن يأتي قبله؛ فلا يمكن لزواج أن يبني الحب، لأن الحب يَبني ولا يُبنى عليه، حتى أن بعض الأساطير تروي أن الحب والزواج كائنان كانا يعيشان وسط الناس في سالف العصور، ورجّح المؤرخون أن الحب قد خُلق قبل الزواج بعقود عدة!

كان اسمها نسرين، وكانت إنسانة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، لدرجة أنها تقبلتني بكل همومي وأحزاني وانطوائي وصمتي الرهيب. كان حبها لي سببًا في أن تتقبلني كما أنا، بكل هذا السوء، واتفقت معها في أول ليلة قضيناها سويًا وهي زوجتي أنني لا يمكن أن ألمسها

إلا بعد أن أحبها، وأنني إن أحببتها فسوف أفعل.. وهي قبلت على أمل أن أحبها، لا على أمل أن أنام معها.

كنت حبها الأول، بكل براءته وعفويته وطهارته ونقائه. وكانت زواجي الأول، بكل ما يحمله الزواج التقليدي من أسى ووجع وألم. كنت أرى في إخلاصها لقلبي المريض صورة أصلية وأصيلة من عدم إخلاصي لأحلام، لأنني تركتها ترحل. نسرين تتمسك بي بكل ما في من عيوب، وأنا لم أتمسك بأحلام بكل ما فيها من مزايا!

كانت نسرين جارتي، وكنت جارها الذي طالما راقبته من خلف النوافذ، وافتعلت المواقف كي تراه بين الحين والآخر، أو كي تتلقف منه سلامًا عابرًا، على أمل أن يصبح يومًا سلام معبرًا معتبرًا. كانت تلهث هي خلف هذا السلام، وأنا بالكاد في قلب حرب لا ولم تهدأ، حرب أداوي فيها جرحي بالملح، حرب خاسرة بكل المقاييس.

شعرت هي مرات عديدة أنني كذلك، وحاولت أن تنتشلني قبل وبعد الزواج من ذلك الكابوس المخيف لها، ومن تلك الحرب التي هزمت فيها حتى قبل أن تبدأ؛ ولكنها لم تنجح، أو للإنصاف لم أجعلها تنجح في ذلك. كنت أنا العائق الوحيد أمامها في أن تمنحني سعادة ما، سعادة موازية، هي ليست بحجم سعادتي في حضرة تفكيري في أحلام، لكن ربما بعضًا من السعادة خير من عدمها، خاصة بعد أن أصبح تفكيري في أحلام مصدر ألم وقلق، رغم كونه كل الأمل.

أتخيل للحظة أن تكون أحلام قد تزوجت ولمسها غيري، فأموت ألف مرة، وأطلق آلاف الرصاصات على هذا المشهد المتخيل،

وأقذف آلاف الدبابيس على تلك البالونة التي تخرج من رأسي وتجعلني أتخيلها للحظة في حضن غيري، وأكره أكثر أن ألمس نسرين أو أقترب منها. بالكاد أمنحها قليلا من الكلام الخالي من الإحساس، أمنحها حديث صديق مضطر أن ينهي حديثه كي يلحق بالقطار المتحرك سريعًا مغادرًا محطته. لا أعلم لماذا قبلت أن أتزوج نسرين، خاصةً وأنا لا أصدق أسبابي الظاهرية بأنه زواج جاء خوفًا من الناس، أو لأن نسرين أحبتني وقبلت بي رغم كل سوءاتي.

أظن أن الإجابة الدقيقة عن السؤال الخاص بزواجي من نسرين هي أنني رجل أناني؛ فأنا قبلت حبها تعويضًا عن حب أفقده، وقبلت قربها تعويضًا عن بُعد مؤلم.. حاولت أن أعوِّض بها ما لا يمكن أن يُعوَّض.. كنت أريدها قريبة حدّ البعد، وبعيدة حدّ القرب.. أريدها معلّقة بي ومغلقة عليّ، كأنني كنت أخشى أن أخسر حبها أيضًا، ليس لأنني أريد كسبه، ولكن لأنني رجل أناني يريد كل شيء. كنت أُقرّبها، ثم سريعًا ما ألفظها.. وألفظها، ثم سريعًا ما ألتقطها.. وألتقطها، ثم سريعًا ما أحتج عليها وأحتد - تلك التي تحتاجني وأجتاحها - حتى أنتشلها منها إليّ. كنت أريدها ولا أريدها، كنت أعالج جرحي الغائر بجرحها.. ومع ذلك، هي كانت ترى في قبولي لمثل تلك المعادلة الظالمة انتصارًا كبيرًا لها ومهمًا، حتى ولو كان الدافع هو الأنانية، كما أظن. إلا أنها كانت تهرب من الدوافع بحثًا عن النتائج، والنتائج كانت اسوأ من الدوافع شديدة السوء!

كل شيء أريده، هو أحلام، لا أريد سواها!

في أجندتي اعتذار لنسرين، لأنني جعلتها تقبل طواعية أن تصبح مجنيًا عليها، أن تخسر مشاعرها الرائعة أمام رجل لا يستحقها. هي تحايلت على مشاعرها، وقبلت بالمستحيل، وأنا تحايلت على المستحيل وقبلت مشاعرها.. هي كان لديها أمل أنني حبها الأول الذي يستحق، خاصة وأن الحب الأول في حياة البنت يعيش ويدوم كثيرًا، ونادرًا ما يُنسى، ولكنها مدينة باعتذار لنفسها، لأنها ورطت قلبها هكذا، وخسرت حياتها معي ولم تعشها كما تمنت، ولم تجدني كما أملت.

خسرت نسرين حياتها معي، وخسرت حياتها أمام المجتمع الذي يرى في المرأة المطلقة مسخ امرأة.. مجتمع يجبرنا على فعل كل شيء خطأ، ثم يتفنن في أداء دور الجلاد.. يُضيق علينا كل سبل المسارات الصحيحة، ثم يعاقبنا لأننا ارتكبنا الخطأ.. يعاقب خطأنا دائمًا بخطيئة، فيورطنا فيما لا ندرك هوله إلا بعد فوات الأوان. خسرت نسرين قلبي وقلبها.. لم تكسبني، وخسرت نفسها!

آلمني أن أصبح في لحظة جانيا، وأن أظلم قلب امرأة أحبتني وضحّت من أجل حبي، لدرجة أنني كنت أصارع في كل ليلة تلك الأفكار والهواجس التي تحاول أن تحتل عقلي، وأقاومها بكل سبل المقاومة المشروعة وغير المشروعة. كنت أسمع ثمة هاجس يتردد في ثنايا روحي فيعصف بداخلي، أسمع الهاجس بصوت خافت يقول:

- "نسرين أحبتك وضحّت من أجلك وحرصت على حبك وعلى أن تكون معك رغم كل التضحيات. أما أحلام، أحبتك

ولكنها لم تضحِ من أجلك ولم تحرص على أن تكون معك، انت فقط تحب التعلّق بما ليس معك"

أصارع تلك الفكرة حتى أصرعها، ولكني اشعر أنها لا تموت.. تقفز في مخيلتي مرات أخريات وأحاربها، فتأخذ صورًا وأشكالًا أخرى مختلفة كي تهزمني.. تقترب من أذني وتوسوس لي، وهي تقول:

- *"أحلام ماتت، نسرين هي التي سوف تعيش معك، لا تفكر فيما فقدته كي لا تخسر ما تملكه!"*

أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وأتماسك، وأقول لنفسي أحلام لم تمت، أحلام سوف تعود.. ومع كل ذلك الثبات الظاهر، أبكي، وأحاول أن أتفادى ذلك دون جدوى، لا أقبل حتى مجرد الاحتمال في أنها قد تكون ماتت، وكل ما يمكن أن أفعله لنسرين أن أطلق سراحها من حياتها تلك معي، كي تحاول أن تبدأ حياة جديدة.

- *أنا عاوز أشكرك على كل حاجة عملتيها معايا وعلى حاجات معملتيهاش حبّا ليّا، إنتي من الأول جازفتي وأنا كمان أخطأت لما وافقت على ده.. أنا بتمنالك كل الخير يا نسرين مع حد يستحق مشاعرك النبيلة دي..*

نسرين والدمع يغالبها، وتحاول لملمة الحروف كي تصنع جملة مفيدة..

- *متقولش كده يا عمر، كل لحظة عشتها معاك اتأكدت فيها إني الوقت اللي قضتيه معاك كنت تستحقه، وإن قلبي اللي حبك من أول نظره عرف يختار صح*

-بس إنتي اخترتي غلط يا نسرين، ما اخترتيش صح!

-لا اخترت صح، لأن إخلاصك بالشكل ده لذكرى حب قديم وتمسكك بإنك متحبش بعده بيأكدلي إنك إنسان، وإصرارك إنك متلمسنيش رغم جمالي ورغم إنه إحساس مهين لأي بنت بتحب بجد، إلا إنه أكدلي نُبلك ووفائك وإنك مش زيّ رجالة اليومين دول اللي بيفكروا في غريزتهم وبس.. إنت راجل.. راجل محترم.. أي ست تتمناه وتتمنى قُربه ولو هو قرر يكون بعيد حتى.. أنا مخسرتش معاك زى ما إنت متخيل أنا كسبت حاجات كتير حلوة

-الحمد لله يا نسرين.. إنتي كده طمنتيني، ابدئي صفحة جديدة من حياتك أكونلك فيها أخ وصديق، وابدئي حياة جديدة يكون فيها جنبك ومعاكي راجل يستحقك، ويستحق مشاعرك الجميلة وحبك الجميل وإخلاصك الرائع

-حاضر يا عمر....

-تسلمي يا نسرين، ومن النهارده إنتي أختي وصديقتي، وأنا من النهارده أخوكي وصديقك

-يشرفني يا عمر.. يا أحسن أخ ويا أجدع صديق

كنت أحاول أن أعتذر لها، وأنا أعلم من داخلي أنها لن تنسى، أو لن تنسى بسهولة، وكنت مضطرًا أن أردد تلك الجملة التقليدية الخيالية الخالية من الصدق، والتي لا تمت لصلة بالحقيقة بأن أصبح لها أخا وصديقا. كيف ذلك، وأنا أعلم أنه لا أخوة ولا صداقة تأتي بعد

الحب، لأن الحب كما أعرفه يَبني ولا يُبنى عليه، فالحب قد يأتي بعد الصداقة ولكن الصداقة لا تأتي بعد الحب، لأن الحب هو قمة المشاعر والأحاسيس. الصداقة طفل قد يكبر ويصبح شابا اسمه الحب، والحب شاب لا يمكن أن يصغر ويعود طفلًا مرة أخرى اسمه الصداقة!

في كل الأحوال، انتهت حكايتي القصيرة مع نسرين بحديث طويل، ووداع راقٍ رقيق، وبنهاية مؤلمة لها لم تتوقعها، لكنني حاولت قدر الإمكان تسكين هذا الألم، وأتمنى لها من قلبي كل الخير والسعادة. هي تستطيع أن تنساني، لو عوّدت قلبها الاستغناء عني، فالحب يبدأ بالمراقبة والتتبُّع والتعوُّد والتعلُّق.. لو كفّت عن مراقبتي من خلف النوافذ، وكفّت عن افتعال المواقف كي تراني، لو بدأت في تصفية ذهنها مني، سوف تنساني مع الوقت، لأن الوقت جزء من العلاج!

هذه خلطة سحرية للنسيان، ولكن كي لا يختزنها عقلي الباطن ويلاعبني بها في معركتنا التي لا تهدأ، أؤكد لنفسي أنها خلطة سحرية لكل البشر ماعدا أحلام.. أحلام ليست مثل البشر، وبالتالي ما يسري على البشر لا يسري عليها، لأنني لا أستطع أبدًا الاستغناء عنها، عن ذكراها، عن التفكير فيها، والتمعُّن في كل موقف حدث بيننا.

مَن مَلَك نعمة الاستغناء عن البشر، مَلَك الدنيا وقهر الحزن وهزم الوجع، واستشعر عظمة الوحدة. وأنا كل ما أعانيه سببه الوحيد عدم قدرتي على الاستغناء عن أحلام. لم أستطع لسنوات أن أستغنى عن حبي لها، لأن يقيني أن استغنائي عنها هو استغناء عني.

تفكرت كثيرًا في كيف أن لحظة من الممكن أن تمنع عمرًا، بفرحه وحزنه، وكيف يمكن لصدفة أن تغيّر حياة البشر، حيث كان لقائي بأحلام صدفة، كأن القدر كان يحركنا أنا وهي مثل عرائس الماريونت، ومازال، ومازلنا!

إن ما أعيشه مع أحلام ليس أبدًا بالوهم، ولكنه الحقيقة، والحقيقة أنها ليست معي ولكنها معي، وأنني أمنح المسافات نحوها ما تستحقه من تلاشٍ، كي يُمنح غيابها ما يستحقه من احترام الحضور، ويتحول الوجع الكامن إلى فرح كامل، فيتحول ما بداخلي إلى ذلك الشعور المُرضي الذي يتغلّف داخلي بإحساس الفرح. هي في قلب هذا الفرح، هي قلبي ذاته، والفرح ذاته، هي ذاتي!

ولذا لا يمكن أن أحب بعد أحلام، وبالفعل لم أحب بعدها، لأنها هي أكثر مَن أحببت، رغم أنها أكثر من خذلني. أكثر مَن نحب غالبًا هو أكثر مَن يخذلنا!

خذلتني أم اضطرت أن تخذلني؟!

لا يهم التوصيف الدقيق لما فعلته أحلام بي، سواء كان خذلانا مقصودا أو غير مقصود، المهم النتيجة وما أنا واقع به، المهم الواقع الذي أحياه بعدها أو لا أحياه، وهو أن ثمة خذلان قد وقع بالفعل تجاهي.. نعم خذلتني، وعرفت معها معنى الخذلان، ومع ذلك لا يمكن أبدًا أن أنسى حبها، لأنه هو ورقة التوت الأخيرة التي لا يجب أن تسقط عني – ولن أدعها تسقط – كي لا يتعرى قلبي، وكي لا تتعرى روحي أمام الناظرين من الناس!

(3)

جسدي ممد على سريرٍ مُريح للغاية، ليس سريري الذي اعتدت النوم عليه، والذي يشعرني بالراحة رغم ما به من مطبّات تؤلم ظهري. ورغم أن السرير هذا أفضل من سريري، إلا أن ظهري يؤلمني أيضًا، يؤلمني للغاية. أحاول أن أفتح عينيّ كي أرى أين أنا، فأجدني غير قادر على ذلك، وجفوني أثقل من جبل أُحُد، ورموشي سبائك فولاذية متجاورة ملتصقة، تُحكم سجن عينيّ بداخلها. أحاول أن أنطق، أن أقول شيئًا، أستنجد بمَن حولي إن كان حولي أحد، فأجد أسناني بمثابة قفصين حديديين متلاحمين، أقوى من أن يخترقهما أي كلام قد يُقال، ولساني عاجز عن التفوُّه بأيّ ح.ف، أشعر بوجع في جسدي، كل جسدي، ألم شديد، كل مساحة ظاهرة وباطنة تؤلمني، وروحي بها ألم أشدّ.

عيناي أشعر بهما تريان ما بداخلي، بعد أن استعصى عليهما رؤية ما تحجبه جفوني بالخارج، أرى صورة أحلام والناس ملتفون حولها في محاولة لإنقاذ،ها وأنا بالكاد أتنفس وغير قادر على الحركة، على بُعد خطوات منهم، مغشيًّا عليّ، أشبه جثة هامدة على سطح البحر.

تستفيق روحي وجسدي مازال فاقدًا للحياة، استحلفه بالله أن يستفيق، كي أصل لبرٍ يمنحني طريقا آخره أحلام.

أرى أحلام وهي طائرة في الهواء بحركات بطيئة للغاية، تلتف إلى الأمام مثل كرة قذفها أحدهم بقدمه بقوة، وتصرخ، لكن صرخاتها صامتة، وغارقة بين قطع زجاجية متناثرة صغيرة للغاية تخترق جسدها دون أن تصيبه بأذى. تدخل القطع الزجاجية المُدبّبة جسد أحلام، وتخرج من ظهرها وهي مُضيئة.. جسد أحلام بات مُعلّقًا في الهواء، وتوقف عن الحركة تمامًا؛ أمامها القطع الزجاجية المتناثرة تشبه الماء المندفع والمتدافع، ومن خلفها تلك القطع الزجاجية الأخرى مضيئة لامعة، والبحر أراه واقفًا وراء الزجاج المضيء، أمامه أحلام التي أمامها الزجاج المائي، أري البحر واقفًا بشكل رأسي متصلًا بالسماء، يشبه البحر لوحا خشبيا أزرق كبيرا مثبتا بالأرض. وتشبه السماء، في التحامها بالبحر من الأعلى، لوحا خشبيا آخر رماديًا مثبتا بالعرض يتدلى منه لأسفل حبل ضخم – موازيًا للبحر الواقف – وفي نهايته مُلتّف حول رقبة أحلام وهي مُعلّقة في الهواء، كأن مشهد إعدام قد نُفّذ فيها بالفعل.

تحاول أحلام أن تمد لي يدها كي أمسك بها، فأرى عينيها باريتان من أثر الصدمة والتصادم؛ سيارة متهورة ترطم جسدها الملائكي، فتقذفه إلى أعلى. ومع حركاتها في الجو، أتحول أنا إلى جماد ثابت، أشبه جذع شجرة يقف وحيدًا في صحراء قاحلة، أو مثل زجاجة ويسكي ممتلئة بالفراغ تقاذفها الموج الشديد حتى ألقاها على شاطئ فارغ،

وباتت وحيدة وسط رمال ملتهبة تستنجد بالموج أن يغمرها فيمنحها نشوة حياة.

أشعر أن ذراعيّ وقدميّ ؛ مدران بالكامل، وجسدي خفيف كأنني بالكاد ممد فوق سطح البحر، والشمس تخترق عينيّ بالنور، فأري العتمة. وأشعر أن روحي ثقيلة، وأسمع صوت محمد عبدالوهاب كأنه يأتي من بعيد متضخمًا، مصحوبًا بصدى شديد يجعلني أتيقن أن أذنيّ تسمع. أحاول أن أغني معه، فأجدني أردد "صابر وبستناك والصبر مش لينا..آخرتها إيه وياك ياللي انت ناسينا.. ياللي انت ناسينا"

أسمع صوتي، فأجده أحلى من صوت عبدالوهاب.. أفرح للغاية، وأجدني أغني أكثر.. أشعر أن غنائي يمنح لروحي سكينة وطمأنينة، ويؤنسني في هذه الوحدة الموحشة، وفي هذا التغييب المؤلم، وأشعر بأن جسدي كأنه ينتفض. أحاول أن أضحك، فأجد القفصين الحديديين يُفتحان تدريجيًا، وأحاول أن أستغل الموقف وأتكلم سريعًا، خشية من أن تُغلَق الأقفاص من جديد فتُسجن كلماتي، ويُقيَّد لساني. اقتنص الفرصة، فأجدني أقول "أحلام.. أحلام.. أحلام".. مجرد ذكر اسمها يمنح لعينيّ تأشيرة الرؤية، ويمنح لروحي تأشيرة الراحة، ويمنح لقلبي تأشيرة السلام، ويمنح للساني تأشيرة الكلام، وتنفك سبائك جفوني الفولاذية الملتصقة تدريجيًا، ويدخل النور إلى عينيّ، إلى داخلي،

فأنتشي، كأني أتنفس بهما ومنهما، أتنفس من عينيّ بها، هي بَصري وهي بَصيرتي، هي نَفَسي وهي نفْسي!

أرى في الأفق أثناء حضوري المتلاشي، في تلك اللحظة التي سرقتها من الوحدة والتغييب، شابًا يقف أمامي رافعًا كفيه في الهواء، كأنهما مثبتتان على لوح زجاجي أمامه، وعيناه حزينتان للغاية ومتثبتتان عليّ، وبجانبه فتاة تبدو في مثل سنه، تغيب عيناها وسط الدموع، وخلفهما امرأة تبكي وهي تسند على كتف رجل خمسينيّ، يمرر كفه على خدّها كي يمسح دموعها. كلاهما يبكي بحرقة، أربعتهم ينظرون إليّ مباشرة، وأنا بالكاد أراهم. أشعر أنهم مألوفون بالنسبة إليّ، أحاول أن أدقق النظر كي أتعرف عليهم، فلا أستطيع.. وأشعر في قلقهم وتوترهم البادي على وجوههم وفي دموعهم المنهمرة تلك ألمًا يعتصرني.. أتوجع، يغيب الضيّ، ويهرب النور، ويختفون تمامًا.

أشعر أن جسدي كأنه نزل من سطح الماء إلى الأسفل، إلى العمق، وأنه بات ثقيلًا للغاية، وروحي باتت غائبة أو مُغيّبة.. بالكاد أتنفس، وأسمع أصواتًا بجانبي تجعلني أشعر وكأنني داخل صندوق خشبي محكم الإغلاق في قاع البحر، وأسمع خارج هذا الصندوق صوت فتاة يبدو رقيقًا، وهي تتحدث إلى رجل بجانبي صوته يشبه صوت عبدالوهاب المتضخم المصحوب بصدى شديد. الكلمات المتداولة بعضها باللغة العربية، والبعض الآخر باللغة الإنجليزية، لا أفهم ما يقولانه، وأسمع صوت أجهزة متناغمة تعمل بانتظام كأنها خلّية نحل. رغم ما أستشعره من قلق، إلا أن مجرد إحساسي بأن ثمة بشر حولي – حتى وإن كنت

مُغيبًا عنهم – أمر يؤنسني. أحاول أن أراهما، فلا أستطيع.. أحاول أن أحدثهما، فلا أستطيع.. أحاول أن أحرك جسدي، فلا أستطيع؛ كأنني بالكاد مُنحت ثانية واحدة كي أستشعر فيها النبض والحياة، وبعدها عُدت مرة أخرى إلى اللاشيء، إلى المنفى، حيث مستقر الوجع والألم، وبدأ حضوري يتلاشى تدريجيًا، يتلاشى تمامًا!

الفصل الرابع

فقدان الذاكرة.. فقدان الذكرى!

(1)

في أكثر من صباح، أستيقظ، أشعر أنني كنت أحلم، وأنني لم أقابل أحلام، وأنها كانت مجرد فتاة رأيتها في حلم جميل. كل التفاصيل تبدو لي وكأنها غير حقيقية، كأن عقلي الباطن خزنها من مشهد ما في فيلم كلاسيكي رومانسي، وصدّره لي في هذا الحلم.

الغريب ليس في كون ذلك حلم أم لا، بل أنه يتكرر مرات ومرات، وبنفس التفاصيل، رغم أنني أحاول قدر الإمكان تغيير النهاية الحتمية التي أصل إليها، في كل مرة أحلم بها بذلك الحلم وبتلك الفتاة التي أخبرتني أن اسمها هو أحلام

وهل من الممكن أن يتحول حلم إلى واقع هكذا؟ وهو ليس مجرد واقع، ولكن حياة بأكملها، حلم يُغيِّر حياتي ويجعلني أتعلق بما لم أعشه. أقوم من السرير متثاقلًا، أشرب قليلا من الماء، وأُحضِّر القهوة التي اعتدت أن أشربها فور استيقاظي، فالقهوة مفتاح الصباح، وأحلام هي الصباح ذاته. فنجان واحد كفيل بأن يمنحني إحساس النشوة والارتواء، خاصة إذا كان مصحوبًا بصوت الرائع محمد عبدالوهاب، مطربي المُفضَّل ومعشوقي الأول.

في هذا الصباح بالتحديد، يردد عبدالوهاب ما أردده لسنوات مضت. يشدو، وأعلّي "الراديو" أكثر، كي يصلني صوته أكثر.. يقول عبدالوهاب:

"كل ده كان ليه.. لّما شفت عنيه

حنّ قلبي إليه.. وانشغلت عليه

كل ده كان ليه.. كان ليه "

لا أعلم يا أستاذ عبدالوهاب.. مازلت لا أمتلك الإجابة. ما أن سمعت كلماتك تلك، حتى تيقنت بأن أحلام ليست حلما، ولكنها حقيقة قائمة. الحلم يعيد تكرار الواقع، ولا يحاول أن يخلق لي واقعا غير موجود. أنا بالفعل قابلت أحلام في ذلك الصيف في الإسكندرية، وعقلي الباطن يحاول فقط أن يستدعي ذلك المشهد من الذاكرة، كي لا أفقد المشهد وأفقدني!

كم تمنيت أن أفقد الذاكرة، كي أخرج من تلك البوتقة التي لا تمنحني وقتًا مستقطعًا أن أتنفس. أقف في تلك المساحة المسماة بعنق الزجاجة، أراني قادرًا على العبور خارجها، بل وتهشيم الزجاجة وكسرها، ولكنني –وبإرادتي– أحيا في تلك المساحة الضيقة، لأن بها ذكرى أحلام، وهي خير لي من كل تلك المساحات الشاسعة خارج الزجاجة. هي كل البراح الممكن، والممكن المستحيل، والمستحيل الممكن!

القهوة كانت على وشك أن تفور ويضيع طعمها الذي أحبه. بالكاد أطفئت النار، وصببت القهوة في فنجاني الخاص، وبدأت أرتشف منه. وبمجرد أن أتذوق طعم القهوة، أشعر ببهجة كبيرة، مثل تلك التي تحضرني وقت أن أتذكر أحلام. وهل أنا أتذكر أحلام وقتًا ولا أتذكرها وقتًا آخر؟!.. أحلام معي في كل وقت.. طوال الوقت

"قاللي كم كلمة، يشبهوا النسمة، في ليالي الصيف

سابني وف قلبي، شوق بيلعب بي، وفي خيالي طيف

غاب عني بقاله يومين.. ما اعرفش وحشني ليه

احترت اشوفه فين.. وان شوفته أقوله إيه؟"

يا الله يا أستاذ عبدالوهاب، أرى انبهارك بتلك الكلمات وقت أن قرأها عليك صاحبها الشاعر الجميل مأمون الشناوي. وفي كل مرة أسمع تلك الكلمات، أنبهر أنا أيضًا أكثر منك، وكأنه كان معي أنا وأحلام، وهي تخبرني بكلمات تشبه نسمات الصيف الرائعة، وما في البعاد من شوق يعصف بخيالي ولا يهدأ، حيث أتذكر طيف ذكراها في ذلك الصيف. هو ضيف لا يرحل عني أبدًا، وأعتز باستضافته أكثر من الثلاثة أيام التي أوصى بها الرسول.. أستضيف ذكراها سنوات وسنوات، عمرًا بأكمله!

ولا أتفق أبدًا مع هذا التساؤل غير المنطقي: "ما اعرفش وحشني ليه"، لأنه بالتأكيد وبكل تلك المعطيات الرائعة والمقدمات الجميلة، تستحق مني كل هذا الشوق. كنت أفتقد أحلام وهي مازالت جالسة

معي وأمامي. وكنت أعلم أن قلبي سوف يستوحش كل شيء دونها، فقلبي منذ أن أنس وجودها لم يعد يأنس بغيرها، ولم يتعلق قلبي أبدًا بأحد سواها.

وماذا إذا تحقق الحلم ورأيتها مرة أخرى؟!

لن أحتار مثل الحيرة الغالبة في أغنيتي الصباحية تلك، بل سوف أقول كل الكلمات التي خبأتها في دفاتر قلبي كي أقصّها عليها. ورغم ذلك، أخشى أن أصمت تمامًا من عظمة اللقاء. ولكن عينيّ سوف تفصح عن كل ما في قلبي، وتفضح شوقي، وحبيبتي أحلام سوف تسمع وسط صمتي هذا كل ما يجب وما تحب أن تسمعه، وسوف ترى في عينيّ ما هو أجمل من الكلمات.

أكمل ارتشاف فنجان القهوة، الذي يتناغم مع صوت عبدالوهاب الكرواني الملائكي، وأقول في نفسي، فلتسامحني يا مطربي المفضل، أحلام هي مطربتي المفضلة، هي أفضل صوت سمعته في حياتي، صوت لا يُنسى ولا يتكرر، كلامها كله غناء، تشدو بصوتها فتطربني، أحلام هي أفضل صوت سمعه قلبي.

مطربتي المفضلة هي أحلام حبيبتي وليست أبدًا المطربة الخليجية أحلام!

أضحك ضحكات صاخبة لهذا الربط المريب الذي أحزنني. هو مجرد تشابه أسماء، ولكن شتان بين الأرواح والقلوب، شتان بين أحلام وأحلام، تلك أحلامي والأخرى أحلام غيري، لا تخصني، وهذا لا ينمّ عن كرهي لأحلام الخليجية ولكن أنا يكفيني أحلام واحدة في

حياتي، هي أحلام حبيبتي، أحلام المصرية، ويكفيني مطربة واحدة مفضلة، هي أحلام حبيبتي، هي وكفى!

أرتشف آخر ما تبقى من فنجان القهوة، محاولًا الهروب من شرك أحلام التي لا أكرهها إلى شباك أحلام التي أحبها!

(2)

نعم وحده عبدالوهاب يستطيع أن يمنحني تذكرة العودة من تلك الغربة الموحشة التي قذفت نفسي فيها بسذاجة...

"اللي حيرني.. واللي غيرني.. واللي فاتني في حال"

الحيرة بدأت منذ أن وجدها، ومنذ أن فقدها، وهي وحدها مَن غيّرتني. ومنذ أن تغيّرت من أجلها، أجدني أغير عليها حتى من مجرد تشابه أسماء مع غيرها، أغير من مجرد هاجس أمقته يجعلني أتخيلها قد تكون في حضن غيري. غيرة تعتصرني، وهي ملكي وحدي، ملكي أنا، فأنا قد اكتشفت هذا العيب فيَّ قبل أن أعيش الغيب بها، اكتشفت أن حبي لأحلام هو حب امتلاك!

حيرتي لا تهدأ، أفكر كثيرًا في كل مرة سوف أذهب لأجدد ذكراها في الإسكندرية، في يوم عيد لقائنا. أنام تلك الليلة كأنني طفل ينام في ليلة العيد، استيقظ باكرًا، أصلي وأدعو الله أن أجدها هذه المرة، وطوال الليل أحلم بها.

ذات مرة، حلمت بها تجري بفستانها الوردي. في أرض خضراء بالكامل، وشعرها لونه أخضر، وهي ممسكة ببالونة شديدة البياض.. وأنا أقف في مكان موحش، لا أقوى على الحركة، وهي بين الحين والآخر تنظر لي مبتسمة، فابتسم، ثم تلتفت وتنظر أمامها وتكمل السير. حتى طارت منها البالونة البيضاء، فجلست مثل الطفلة تبكي وتصرخ، وأنا غير قادر على مساعدتها. تدريجيًا، بدأت الأرض الخضراء تتحوُّل إلى اللون الأسود، وكذلك شعرها الأخضر وفستانها الوردي بالتحوُّل إلى اللون الأسود أيضًا، وأراها تختفي تدريجيًا، كأن اللون يبتلعها، وأجدني أنا أختفي وتبتلعني الأرض.. نختفي معًا. استيقظت مفزوعًا حزينًا لاعنًا خيالي وعقلي الباطن، اللذين منحاني لحظة مختلفة مع أحلام، لكنها حزينة أيضًا.

ومرة أخرى، حلمت بأنني قد قابلتها، وأنني وهي نجلس على كُرسيين خشبيين مثبتين في السماء، ليس أمامنا أي شيء ولا بيننا شيء، معلقين أنا وهي بين الأرض والسماء، أحدثها وهي صامتة تماماً لا تتكلم ولا تحرك ساكنًا، كأن جسدها بالكامل نائم ماعدا عينيها، وأحاول أن أقترب لأمسك يدها لأجعلها تستيقظ، أريد أن أدفعها بيدي كي تستفيق، وفي كل مرة أحاول دون جدوى، حتى أندفع من على كرسيّي وأجدني أسقط في الهوّة التي هي بيننا، فأسقط إلى الأرض، بينما أرى كرسيّها وكأنه يرتفع إلى السماء. وقبل أن يرتطم جسدي بالأرض، أستيقظ مفزوعًا حزينًا ممسكًا في السرير وكأنني أخشى الوقوع من فوقه!

كأن خيالي وعقلي الباطن يكافئاني في تلك الليلة فقط، ويمنحاني مشاهد أخرى، غير المشهد الثابت الذي أحلم به كل مرة، حيث ينتهي بأحلام وهي تلعب معي وتسير خلفي ونتكلم، حتى أفقدها وأبحث عنها وأهرول في كل مكان دون جدوى، وما ألبث أن أفرح بتلك المشاهد الجديدة الجميلة، حتى تنتهي بمشاهد أخرى حزينة، ونهايات تشبه النهاية الحقيقية، حزينة أيضًا!

"نام وسهرني.. ولا فاكرني.. ولا مش ع البال

صبّحني في هم وويل.. من طول ما بفكر فيه

نسّاني أنام الليل.. خلاني أبات أناجيه

كل ده كان ليه"

لديّ يقين، يريبني أحيانًا من ثقتي به، أنها لا تنام، وأنها تفكر فيّ كثيرًا، وأنها مثلي تتذكر كل ما حدث بيننا.. أعلم جيدًا أنها تشتاق إليّ، وأعلم أكثر أنها مضطرة أن تخلف وعدها لي وأن تتخلف عن لقائي. رأيت في عينيها –يوم أن وعدتني أن تأتي مرة أخرى كي تراني– صدقًا لم أنسه، صدقًا ألهمني كل هذا الإخلاص في ألا أتخلى عن وعدي لها بأن آتي إليها كل عام، وأن أمنحها وحدها قلبي بلا أي شريك فيه.

أتفكّر كثيرًا في كيف أن لقاء واحدًا ووحيدًا يمكن أن يفعل بقلبي كل هذا. قلبي، الذي تهافتت عليه فتيات جميلات ارتأوا فيه كل المُنى، وارتأوا في شخصي فارسًا لأحلامهم، لم أشعر بهم، لم أبادلهم المشاعر، هي أحلام وحدها، رغم أنها أقل جمالًا منهن، لكنها مختلفة، اختلافا جميلا، أحببت تلقائيتها، براءتها، نظراتها، ابتسامتها، كل شيء.. كان لقائي بها معجزة في كل تفاصيله، في أن نتجمَّع من مكانين مختلفتين في مكان ثالث، في أن نختزل سنوات من التعارف في لحظة، نتوحد فيها أنا وهي ونكتشف مستودعًا هائلًا من المعرفة المتبادلة. تفاصيل ساعات قليلة كانت قادرة على أن تلهمني عمرًا بالكامل، وتمنحني نشوة الحب الذي تمنيته سنوات.

ولم أجنح أبدًا لنسيانها، لأنني لن أستطيع أبدًا. وكانت إجابتي دائمًا بأن النسيان والتغاضي عن كل ذلك سهل للغاية، وأن الأصعب هو ما أنا فيه، ولكنني بعكس ما يشدوه عبدالوهاب في أغنيته، أتيقن من أن هذا هو أفضل ما يمكن أن يحدث لي، أن ابدأ صباحي بها رغم أنها ليست معي، وألا أجد في صباحها الرقيق أبدًا أي هم أو ويل، ولكنني بالتأكيد مثل عبدالوهاب، لا أكف عن مناجاتها وأنا على يقين أنها تسمع نجواي، وأحايين كثيرة أسمع منها، وأستمع إليها.

بل أنني أتذكر مرة حلمت بها في ليلة عيدنا الرسمي، وقت أن أطلق خيالي العنان لي، كي أعيش معها مشهدًا جديدًا. أتذكر أنني كنت أتحدث معها وتسمعني، كان مشهدًا جميلًا يليق بذكرى جميلة في ليلة عيدنا. وفي وسط استغراقي معها في الكلام وسعادتنا البالغة أنا

وهي، جاء صوت ضوضاء من الشارع، مما جعلني أستيقظ من نومي، وأتركها وتتركني. ولما استيقظت، بكيت ولعنت البشر، لأنهم كانوا سببًا في أن تضطر أحلام أن تنهي حديثها معي، وأنهم سبب في ألا أكمل حلمي معها. وتفكرت كثيرًا في مدى صبر الله على عبث البشر على هذا الكوكب، ودعوت الله أن ينسفه نسفًا. ولما هدأت، تذكرت كون أحلام مازالت على الكوكب، فدعوت الله ألا يستجيب دعائي!

وهل يستجيب الله دعائي أصلًا؟!

لو كان الله يستجيب دعائي، لكانت أحلام معي الآن، بل وجانبي على السرير، أنظر إلى عينيها وأقص عليها من حبي لها ما يشبع عشقي لها وحبها لي!

لو كان الله يستجيب دعائي، لكانت أحلام معي الآن، وأنني أمشط لها شعرها، وهي تجلس أمامي مستكينة مستسلمة مثل طفلة جميلة!

لكن الله لا يستجيب دعائي، وهذا -رغم ألمه على نفسي- إلا أنني أحمل يقينًا بأن هذا رحمة من الله بي، رحمة ظاهرها الألم وباطنها الأمل...

أفكر لوهلة، فأتذكر أن هذا الحلم الجميل الذي لم يكتمل كان من الممكن أن ينتهي نفس النهايات الحزينة، وبالتالي فأنا ممتن لهؤلاء الناس أنهم كانوا سببًا في نصف حلم.. نصف جميل.. وأنهم أنقذوني من النصف الآخر الحزين. إنها حقًا رحمة الله بنا أن لا يستجيب دعاءنا!

"ليه بيحرمني.. من سؤال عني.. وافضل استناه

لو يكلمني.. كان يطمني.. ع اللي بتمناه

يا شاغلني ليل ونهار بغرام ما أقدرش أداريه

شوف قلبي وشوف النار اللي إنت قايدها فيه

كل ده كان ليه"

أردد مع عبدالوهاب " ليه بيحرمني.. من سؤال عني.. وافضل استناه "، وأشعر بوجع في قلبي لطول الحرمان، خاصة إذا كان هناك أن ثمة احتمال بأن أحلام كانت تستطيع أن تأتي لتراني ولم تأت. مجرد سؤال يا أحلام.. سؤال واحد فقط.. أنت أخذتِ عنواني لترسلي لي عليه خطاباتك الموعودة، ولم ترسلي. وأنا أعرف أنك حفظتِ العنوان فلن تنسيه، ولن تتحججي بأن الورقة التي دوّنت عليها العنوان لكِ قد ضاعت. أعرف أنك لا تنسين عنوان عمر يا أحلام، وأنكِ مازلتِ تحفظينه ،خاصة وأنتِ عنوانه وبيته!

إذن فلماذا حرمتني من مجرد سؤال؟ سؤال يُطيب خاطري الذي اعتصره الهم.. هذا أضعف الإيمان، ولكنني مازلت رغم كل ذلك لديّ أمل وأنتظر.. أنتظر أن أراك، أو أن ترسلي لي ما يطمأنني عليك، ويحدد موعد جديد للقائنا. كنت أستحق منكِ أن أطمأن عليكِ يا أحلام، كي أطمأن على نفسي وعلى قلبي.

أعلم أنك يا أحلام سوف تأتين لي، سوف تعودين، وسوف تثبتين لي نظريتي فيكِ ونظريتي عنكِ أنكِ بمثابة الماء، سوف تطفئين كل النار

التي اشتعلت في قلبي منذ أن افترقنا، وسوف تفاجئين بكل تلك النار المشتعلة داخلي من فراقك. سوف أطلب منكِ ذلك، كما يشدو عبدالوهاب بها وأرددها معه دائمًا " شوف قلبيَ وشوف النار اللي انت قايدها فيه.. اللي انت قايدها فيه"

أعدك يا أحلام أنني تلك المرة لن أضغط عليك بين يديّ وأنتِ بمثابة الماء، كي لا تنفذي من بين أصابعي وتضيعي مثل المرة الأولى والأخيرة، وقت أن نفذتِ من بيني يديّ.. سوف أمسك بكِ فقط كي تظلي معي!

عبدالوهاب انتهى من أغنيته، وأنا مازلت أدندن أغنيتي التي لا تنتهي.. أحلام.

لا أتذكر كم مرة استيقظت من نومي لأنادي عليها، علّني أجدها في أي ركن قابعة تنتظرني، وهي ممسكة بزمام الصباح، مختزلة كل معاني البهجة والسعادة في وجودها، كي تصنع صباحًا رائعًا بامتياز.

أدخل المطبخ، وأتمنى أن أجدها تجهز لي فطوري، فأمنحها قبلة صباحية بريئة أطبعها على خدها، أو غير بريئة حتى، وأساعدها، ونتناول الفطور سويًا وأنا أطعمها مثل الأم التي تطعم ابنتها الصغيرة. أنا في حضرة أحلام لا أكف عن أداء كل الأدوار المتاحة، طالما تمنحها السعادة.. أحيانًا أكون أباها، وأحيانًا ابنها، ومرة أخرى أكون أمها التي حرمت منها وهي صغيرة.

أفتش عنها وأنا أنتظر أن أسمعها ترد، في كل مرة لا أجدها. بعد أن أتعب من البحث، أتوقف فجأة وأتساءل: لماذا أبحث عنها وهي معي؟..

الفصل الخامس
عمر العشرينيّ

(1)

أركب القطار المتوجّه من الإسكندرية إلى القاهرة وأنا إنسان جديد، أتمنى لو كنت أنا عمر الخمسيني ولست عمر العشريني. رغم كل ما حكى لي عن معاناته، لكنني كنت أتمنى أن أكون مثله في وفائه، هذا الذي وصل به إلى حافة الجنون.. أو ربما إلى قمة العقل، وجعله -على أمل لحظة واحدة- يخسر عمره بالكامل.

كنت أبكي وهو يحكي وأتوجع له، وأتمنى لو كان الله رزقنا بنعمة أن نأخذ من الآخرين أحزانهم ونحملها فوق ظهورنا، وأن ننقي قلوبهم الطاهرة من كل ما شابها من حزن وفقد وألم. شعرت كم صغرت همومي عندما سمعت له، وشعرت كم أنا مقصر في حبي لشيماء، التي أحبها وتحبني، والتي لم أفقدها مثل الرجل الخمسينيّ الذي فقد حبيبته. تمنيت أن أختصر كل المسافات الجغرافية بيني وبينها، كي أهرول إليها وأعتذر لها عن كل مرة خذلتها فيها، وأنا الذي وعدتها وهي حاضرة بين يدي غير مفقودة، وأنا وهي نعلم أن الوعد قد يشوبه احتمال عدم وفاء به، لظروف خارجة عن إرادتنا ربما، فما بالي بهذا الرجل الذي وعد امرأة قابلها مرة واحدة في العمر، وباتت غير حاضرة بين

يديه ومفقودة، وكان على يقين لا يشوبه أيَّ احتمال أنه سوف يفي بوعده لها، وسوف يقابلها مهما كانت التضحيات

خسر عمر الخمسينيّ عمره بالكامل، في مقابل أن يكسب امرأة واحدة، أو لحظة واحدة معها، أو لقاء واحدًا آخر، ولو حتى أخير! تعلمت في يوم واحد ما لم أكن لأتعلمه في سنوات. أكثر ما تعلمته أن أتشبث باللحظة الجميلة ولا أتركها تمر، وأن أفتش عن كل اللحظات الجميلة وأعلّقها على جدران قلبي وعلى حائط روحي، كي أراها حاضرة أمامي لا تغيب، لأن اللحظات الي نعيشها مع مَن نحب هي الرصيد الحقيقي الذي نملكه، والعمر الحقيقي الذي نحياه.

سوف أصالح شيماء، وأقنعها أنني لا أخونها ولم أخنها أبدًا، وأنني سوف أنتهز أقرب فرصة كي أتزوج بها وأجعلها لا تفارقني حتى نهاية العمر، وأنني لن أغيب عنها أبدًا، وأنني لن أخذلها أبدًا بعد اليوم. أشعر أن بداخلي كلامًا كبيرًا، أكبر منّي، وكثيرًا، بحجم وروعة ما سمعت اليوم من الرجل الخمسينيّ عن الحب.. بالفعل، قد تعلمت منه الكثير عن الحب.

أتذكر كلمات الرجل الخمسينيّ، فأخشى أن يضعني القدر في مثل هذا المسار الذي لن أتحمله، ولا أعرف سر تقبُّله لي وكلامه معي، رغم توجُّسه من كل الناس دوني، حتى أنني طلبت منه رقم هاتفه المحمول، كي أكون على اتصال معه كي اطمئن عليه، لكنه أخبرني أنه لا يمتلك أي شيء له علاقة بالتكنولوجيا الحديثة، رغم أنه حكى لي عن ابن أخيه الذي لا يكف أن يحكي له عن مواقع التواصل

الاجتماعي، ويشرح له كيف تعمل، خاصة "الفيس بوك"، ويشرح له معنى كلمة "إيميل"، ومعنى كلمة "إنبوكس". شرح الرجل الخمسينيّ لي ذلك ظانًا أنها طفرة ينعم بها جيلي!

ولا يعلم الرجل الخمسيني أنني وغيري من ضحايا هذه المواقع العقيمة، التي تسرق منّا الحياة الحقيقية، لذلك أرى أن عمر الخمسيني ممتن برسالة شكر في أجندته إلى مواقع التواصل الاجتماعي – لأنه رغم أنه يعرفها وتعرف عليها – لم يقع فريسة في شبكاتها، فأنا مثلًا أتكلم مع شيماء على "الفيس بوك" ونُغرق في الحديث، نغرق في الكلامَ وأشعر أننا لا نتكلم، لا أنا أراها ولا هي تراني، لا أنا أسمعها ولا هي تسمعني. أحيانًا أتكلم معها من خلف تلك النافذة المضيئة وأنا معتم بالكامل؛ نحسن الضغط على الحروف، التي قد لا تعبر بالضرورة عن حالتنا الحقيقية، أمعن الضغط على حرف الهاء "هههههههههه" كي أوهمها أنني أضحك، وأنا ربما يعتصرني الحزن، وهي أحيانًا تصدق وأحيانًا توهمني أنها تصدق، نحن أنا وهي في الضغط على حرف الهاء، ونحن يعتصرنا الحزن أحيانًا، نتكلم كأننا بالفعل قريبون للغاية، رغم أن بيننا مسافات جغرافية كثيرة، مشاعرنا قريبة، لكننا نحاول أن نتحايل على أن أجساد بعيدة.

نعم تتلاقى القلوب، ولكن لما لا تلتقي الأجساد؟!

نعم تتلاقى الأرواح ولكن لما لا تلتقي الأعين؟!

نُطَارد بكل أدوات التواصل "واتس آب" "فيس بوك" "فايبر" "تويتر" "أنستجرام"، ومواقع أخرى كثيرة. وفي خضم ذلك، أيقنت

حقيقة أن مواقع التواصل الاجتماعي ليست إلا مواقع للانفصال الاجتماعي، كي يجلس كل منّا وحيدًا في غرفته، خلف نافذته المضيئة، يظن أنه يتواصل مع العالم أجمع، وهو في الحقيقة وحيدٌ للغاية، منفصل تمامًا، يعزف وحيدًا ظانًا أنه قائد أوركسترا عظيم، وحتى كل التصفيق الذي يسمعه، وكل الإعجاب الذي يراه، غير حقيقي بالمرة!

كم تمنيت أن أمسك يد شيماء وأقبلها امتنانًا، أن أمسح دمعاتها وقت أن أستشعر حزنًا في عينيها، أن أنظر في عينيها وألقى كل هالات الفرح عليها كي تضيء بسماتها قلبي، كي تمنحني بسعادتها راحة أبديّة.

كم أفتقد أن أرى تعبيرات وجه شيماء وهي تفرح، وهي تضحك، وهي تلومني، وهي تدمع، أفتقد أن أعيش معها وأعيشها، لا أن أعيش خلف تلك النوافذ المضيئة بعيدا عنها وهي بعيدة عني، ونتوهم حياة غير قائمة.

عمر الخمسينيّ أحب وأخلص في حبه، لأنه رأي تعبيرات أحلام، قسماتها، عشق كل تفاصيلها، ضحكها، قلقها، فرحها، عاشها هو قبل أن يموت فيها، وعاشها قبل أن يموت بعيدًا عنها!

وعدني الرجل الخمسينيّ المحمَّل بأحلام ما مضى، وأحلام ما يمكن أن يعود أو تعود، أنه لو عاش للعام القادم، فسوف أجده في مثل ذلك اليوم، هنا في نفس المكان، بنفس الهيئة. ووعدته أنني سوف آتيَ كي أطمئن عليه..

(2)

أتذكر وصيّة أمي لي أن آتي إلى هذا المكان في الإسكندرية، وحرصها أن أنفذ وصيتها، وثقتها في أنني سوف أتفهم موقفها ذلك. ولم أكن لأعلم أنني -لو عاد بي الزمن- لأرغمت أمي أن تفعل ما فعلت، في أن تفي لقلب رجل ملائكي، تتمناه أي امرأة، ويتمناه أي ابن أن يصبح أباه، ويتمناه الكون بأكمله كي يكون سببًا في رحمة الله لهم.

آه يا أمي لو كنتِ على قيد الحياة، لعاودت أحكي لكي عن أفضلَ رجلٍ قابلته في حياتي، وأفضل رجل قابلته في حياتك. كتب القدر رجلًا عظيمًا مثل أبي أن يصبح زوجكِ، وكتب لقلبك مثل ذلك الرجل الخمسينيّ الذي قابلته اليوم أن تحبيه.

ترددت كثيرًا وأنا أسمعه يحكي عن حبه لكِ، وهو لا يعرف أنني ابنك. يحكي لي دون قلق أو ريبة، وكأنه شمّ في قميصي رائحة من فستانك الوردي الذي قابلته به يوم أن تقابلتما، هذا الفستان الذي تخبئينه وسط ملابسك، وكلما سألتك عنه أخبرتيني بأنه فستان اشتراه جدي حسن لكِ ووعدتِه بأن تحتفظي به العمر كله.

لم يبخل عمر الخمسيني يا أمي بعد كل هذا العمر أن يحتفظ بملابسه الذي رأيتها عليه، أن يحتفظ بها رغم كل تلك السنوات ولا يعبأ بهمز الناس ولمزهم.

كنتما تفعلان الشيء نفسه، وأنتما تظنان أنكما أبعد ما يكون، وأنتما أقرب ما يمكن أن تكونا!

كيف يمكن أن يولد حب رقيق راق مثل ذلك الحب يا أمي؟!

اعتصرني قلبي وأنا أسمع منه بدايات ما أعرف أنا وحدي نهايته. كيف يمكن أن أخبره أنني وهو نقتسم حكاية واحدة، هو أولها وبدايتها، وأنا آخرها ونهايتها!

كيف يمكن أن أخبره أنني اسمه؟!

كيف يمكن أن أخبره أنني نصفه، الذي تمنى هو أن يكون صاحب نصفه الآخر، منكِ؟!

كيف يمكن أن أخبره بأن الحلم الذي أفنى عمره في انتظاره قد تلاشى؟!

كيف يمكن أن أخبره بأن الفرح الذي قضى العمر بأكمله في انتظاره قد ولّى؟!

كيف أغلق عليه باب الأمل الوحيد، وأطعنه بخنجر اليقين، وسط كل هذا الكم من التمنّي؟!

يا الله!.. كلها أسئلة تبادرت إلى ذهني وأنا في حضرته..

طلبتِ مني يا أمي في وصيتك أن أخبره بحقيقة موتك، ولكنني لم أستطع أن أحقق لكِ هذا الطلب.. أنا مضطر أن أخذلكِ يا أمي للمرة الأولى في حياتك، بعد موتِك.. مضطر ألا أخبره بحقيقة موتك، كي ينعم هو بما تبقى من حياته على أمل قد يأتي، على الاحتمال الضعيف الذي يجعله مازال يقوى على الحلم

مضطر أن أخذلكِ يا أمي سامحيني.. سامحيني

لا أنتِ استطعتِ أن تمنحيه ما تمنى في الماضي، ولا أنا أستطيع أن أقتل ما يتمناه في الحاضر.. لا أنت منحتِه حياة تمناها، ولا أنا قادر على منحه نهاية حياة لم يتمنها!

كيف يمكن أن أقتل هذا الحلم في عينيه؟!

الحلم الذي رغم مرور سنوات طويلة عليه، مازلت أراه طفلًا يحبو في عنينيه الحزينتين، وسط شيبه الظاهر وشباب قلبه الباطن.

هل تعلمين يا أمي أنه قد لا يمنحه القدر فرصة أخرى كي يمارس طقوس ذكراكِ في نفس ذلك اليوم من العام القادم؟!

هل تعلمين يا أمي أنه قد يموت إن أخبرته بموتك، وسوف أشعر أنا – إن أخبرته – بكل ألم فقدانك ووجع تغيبك عني؟!

هل تعلمين يا أمي أن حبه لكِ قد منحه يقينا جعلني أظن للحظات أنكِ لم تموتي، وأنكِ بالفعل سوف تعودين إليه في مثل ذلك اليوم العام القادم؟!

هل تعلمين يا أمي أنني وجدت فيه ما افتقدته في أبي من شعوري به بأنه صديق؟!

هل تعلمين يا أمي أنه قد لا يعود العام القادم؟!

هل تعلمين يا أمي أن القدر قد لا يمنحه فرصة أخرى كي يمارس طقوس جديدة لذكرى حب قديم؟!

(3)

فكرت للحظات أن أخبره بأنك مُتِّ، كي يعرف مكان قبرك يا أمي، ويذهب ليدعو لك، ثم يقرأ عليك رباعياته التي لم تسمعيها منه، ولم تقرئيها عنه أبدًا، وكي أمنحه رسائلك التي كتبتها له ولم يقرأها هو. فكرت في ذلك، لأنني سمعت أن الموتى يسمعون من يزورهم في قبورهم، وأعلم أن سعادتك سوف تكون كبيرة وأنتِ تسمعين صوته يقرأ عليكِ ما تيسر من كلمات كتبها لكِ فقط.

كنت من الممكن أن أقتل كل كلماته المفعمة بالأمل، بكلمة واحدة مكونة من أربعة أحرف، ولكن لساني عجز أن ينطقها، وأبت شفتيّ أن تحاول تبيانها.

كنت على وشك أن أقول له إنها "ماتت".. "أحلام ماتت".. "أحلامك ماتت"!

يا الله!.. ببساطة هكذا أخبره أن أحلامه ماتت!

أخبره أن انتظاره لم يعد يُجدي!

أخبره أن حياته لم يعد لها قيمة!

أخبره أن كلمة "النهاية" لا بد أن تظهر على الشاشة، وأن يُسدل الستار على مسرح حياته الحزينة!

لم أستطع يا أمي.. ولن أستطيع!

فأنا، ولمجرد سؤالٍ عابرٍ له عن أنكِ قد لا تعودين مرة أخرى، اجتاحني برفضه، وعنّف تلميحي صراحةً، حتى كدت أصدقه، وأصدق أنكِ سوف تأتي إليه في قادم الأيام.

اليوم فقط عرفت كيف كان قلبك هو سبب موتكِ!

كان القدر مختصرًا وموجزًا في رسالته، وقت أن أخبرنا الطبيب بأنكِ مريضة بالقلب.. لم أتعجب الآن من تعب قلبك يا أمي، كان عليه أن يتعب لأن الحمل كان ثقيلًا للغاية، كان أكبر من أن يتحمله أي قلب.

كنتِ يا أمي تحاولين الإخلاص كل الإخلاص لرجل يستحق، هو زوجك؛ أبي، دون أن تطعني إخلاصك هذا بتخلٍ عن رجل كان أولى أن يستحقك هو، ذلك الرجل الملائكي؛ عمر.

ولكن عمي عمر مدين باعتذار جديد في أجندته الممتلئة عن آخرها، لرجل ظلمه دون أن يقصد، لأبي. لأنه أخذ قلب أمي، وترك فتاتًا منه لأبي. هو لم يكن جانيًا ولكن أبي كان بسببه بالضرورة مجنيًا عليه. لم يكن الرجل الخمسيني ظالمًا، ولكن أبي كان بالضرورة مظلومًا، ورغم أن أمي لم تشعره أبدًا بذلك إلا أنني ألمسه الآن!

وأنا لا بد أن أبدأ أجندتي الخاصة مثل عمي عمر. هذه الأجندة سوف أسجل فيها مثله كل رسائل الاعتذار والاعتزاز، الشكر والامتنان، العتاب والحب. سوف ابدأ أجندتي برسائل شكر وامتنان لكِ يا أمي، رسائل كثيرة، أهمها أنكِ وثقتِ فيَّ -وأنا الصغير- لدرجة البوح لي بسرك الكبير. أنا ممتن لكِ برسالة الشكر على منحي لقاء رجل بتلك الروعة، وعلى يوم يساوي عمرًا بأكمله.

هذا اليوم قد منحني نضج وخبرة وتجربة سنوات عديدة. يوم غيّر مجرى حياتي، وجعلني أشعر بنعم الله عليّ، تلك النعم التي لا تحصى ولا تعد!

وفي أجندتي أيضًا، سوف أدون رسالة شكر لكِ يا أمي، لأنك اخترت لي اسمي هذا، الذي شعرت اليوم بالفخر بسببه. فخور أن اسمي عمر، وأنا بشر، على اسم عمر الخمسينيّ الملاك.

أتفكر فيما يمكن أن يكون هذا الرجل كسبه وسط كل هذه الخسائر! ماذا حقق وامتلك وسط كل هذا الذي فقده وافتقده؟! هل ما فعله هذا الرجل صواب أم خطأ؟! هل يمكن أن أعيش عمرًا بأكمله وفاءً للحظة واحدة؟! وهل يمكن أن أضحي بحياة قائمة من أجل حياة قادمة؟! وكيف يمكن أن تزرع صدفة بداخله كل هذه الجنائن من الحب اللامنتهي، ومع ذلك لا يحصد مبتغاه، ومع ذلك لم يحصد بعد ثمرة صبره الطويل وعنائه الكبير إلا الألم؟!

تساؤلات عدة انفجرت ومازالت في رأسي، أغلبها يصعب الإجابة عليها، ولا أعرف هل لو كنت أنا مكانه كنت لأفعل مثله أم لا..

وبعد تفكير، اكتشفت أنه قد كسب وفاز، رغم ما يبدو من خسائر، وأنه اختار الصواب، مع أنه طريق صعب ومؤلم، ورغم أنه خسر حياة طبيعية تقليدية، إلا أنه كان أمام كل تلك الخسائر رجلًا فائزًا، وأنه أمام كله تلك الهزائم، رجل منتصر.

كسب مشاعره، وكسب قلبه، وكسب إحساسه، وفاز بوفائه الذي غلّق عليه باب الحياة أمام كل الناس ماعدا أحلام، لكن يقينه بأن أحلام هي المكسب الأكبر والأهم، وأن ذكراها هي الكنز الذي لا يفنى هو ما منحه طمأنينة كبيرة وأمل كبير.

هو كسب وانتصر، في مجتمع لم يعد يحترم الحب، ولم يعد ينظر إلى الزواج إلا كونه مجرد مشروع هادف للجنس أو للربح، أو معادلة حسابية نتيجتها المال الوفير، حتى تحولت الفتاة إلى مجرد سلعة يشتريها مَن يملك ثمنها، وبات الحب في آخر الاهتمامات وفي مؤخرة الأولويات!

ويبدو أن عمر الخمسينيّ سأل نفسه تساؤلًا هامًا، حددت إجابته اختياره لشكل حياته تلك التي عاشها. هذا التساؤل متعلق بمدى سعادته لو تزوج وعاش مع امرأة لا يحبها، هل كان سيشعر بالسعادة أم لا، وبالتأكيد كانت الإجابة حاضرة بلا، ولذلك لم يكمل زواجه بنسرين، ولم يستمر زواجهما سوى أشهر قليلة.

وكان التساؤل الثاني متعلقا بالآتي: حياة مع حبيبته أحلام بدونها أفضل، أم حياة مع غير أحلام بدون حب أفضل؟

وبالتأكيد كانت إجابته الأقرب والأكثر سعادة لقلبه أن حب مع حبيبته أحلام بدونها أفضل من حياة مع فتاة غير أحلام لا يحبها!

هي الحياة التي نعيشها كذلك، ليست أكثر من مجرد إجابة لتساؤل هام، نحن نختار الإجابات ولكننا لا نختار الأسئلة. كلما كنا أكثر تفهمًا للأسئلة -ولو كانت صعبة- كلما تمكنّا من التعايش مع الإجابات؛ ولو كانت أصعب. وأتعس البشر هم مَن يواجهون أسئلة صعبة لا يريدونها، ويضطرون لإجابات صعبة لا يختارونها!

فالحياة تشبه المطعم الكبير، أسعد الناس فيها مَن يمتلك رفاهية أن يختار ما يريد وما يحب من "المنيو" الخاص بذلك المطعم. وأتعس الناس من يُفرض عليه من "المنيو" ما لا يريده وما لا يطلبه، ويضطر أن يأكل مضطرًا حتى لا يموت من الجوع. فما الحياة إلا مطعم كبير!

ويظل عمر، ذلك الرجل الخمسيني في هذا المطعم، صامدًا في إضرابه المفتوح عن الطعام، في مطعم هو مضطر فيه أن يأكل ما لا يريد وما لا يطلب، أو يظل بلا طعام. هو اختار أن يُضرب عن الطعام بكامل إرادته، لأنه يعلم أن الطعم الذي ينتظره يستحق كل ذلك الصبر المتعب، وكذلك يعلم أن أيّ طعم غير طعم أحلام لن يشبع قلبه الممتلئ بها حدّ الشبع، وروحه الممتلئة بها حدّ الرضا، ولذا يُصبِّر نفسه بالأمل. الأمل لعنته المستمرة، التي تجعله يتعايش مع انتظاره الطويل والمرهق، الأمل وحده هو زاده المؤقت!

أما أنا، فانتظاري قد انتهى الآن، وأملي في الوصول إلى المحطة قد تحقق. القطار على وشك الوصول إلى محطة مصر في القاهرة، وأنا كنت أظنه مازال لم يتحرك من الإسكندرية.. طريق طويل بات قصيرًا أمام حكايات رجل قضى سنوات عديدة بفرحة لحظة واحدة، وما بين الذهاب والعودة تذكرتان قطعتهما، كفيلتان أن يمنحاني سفر عمرٍ بأكمله..

الفصل السادس

الهوامش تستحضر المَتن!

(1)

حمل عمر العشرينيّ رأفة تجاه رجل توَّحد مع الانتظار، وتعايش مع الأمل، وتحايل على الألم، ولم يكن هو ليقدر على قتل انتظاره ووأد أمله وزيادة ألمه، لأن الرجل الخمسينيّ محمّل بما يكفي، حتى بات ظهره مَحنيًا من فرط حمله الثقيل الذي يحمله، وهو متقبل، مبتسم، ممتن له

لم يخبره عمر العشرينيّ بوصيّة أمه التي ترجته فيها أن يقرأها ويتفهمها وينفذها بحذافيرها، تلك الوصيّة التي لم يجد عناءً في أن يجدها وسط ملابس أمه، وبالتحديد أسفل فستانها الوردي الذي حمل رائحة عمر الخمسينيّ وذكراه..

ولدي عمر..

إنت دلوقتي بتقرا وصيتي ليك، أرجوك اقراها من غير ما تبلها بدموعك الغالية يا أغلى وردة طرحت في بستاني، وفّر دموعك لفرحة تستحقها كنت أتمنى أكون فيها معاك، لكن رب العباد اختارني في مكان أفضل، عنده

كلامي الجاي ليك ده وصيّة، ربما تكون مفاجأة ليك، لكن حبك وثقتك في أملك كانوا أكبر دافع إني أحمّلك أمانة شيلتها سنين، وكانت حمل أتقل مني، ومسؤولية أكبر بكتير من إن بشر يتحملها، أنا تزوجت والدك رحمة الله عليه بعد ما خلصت جامعة مباشرة، جواز تقليدي كنت مضطرة له لأن رفضي ليه كان معناه تعب والدي (جدك حسن) بل وموته خاصة وإنه كان مريض بالقلب، وكان رفضي لحياتي مع أبوك سبب كفيل بموت جدك وده كان اختيار صعب، ورغم إنه كان مصير قاسي إلا إني كنت مجبرة أختار

ورغم زعلي من جدك حسن لكن هو كان ليه أسبابه في خوفه عليّا خاصة وإني بنته الوحيدة ورغبته في الاطمئنان عليّا، يمكن ظلمني بده لكن حتى وقت ما ظلمني كان عنده دوافع كتير عادلة إنه يطمّن عليّا

إتجوزت والدك مضطرة، لكن حُسن معاملته وحبه الكبير ليّا كانوا أهم أسباب إن جوازنا يكمل بل وإن ربنا يرزقنا بيك، لكن قلبي كان ومازال مع واحد تاني، قابلته مرة واحدة في العمر، قبل ما أعرف والدك، قابلته في إسكندرية وإتعاهدنا وقتها نتقابل نفس اليوم ده السنة الجديدة ولو محصلش نصيب يبقى نفس اليوم من السنة اللي بعدها وهكذا، وإدّاني عنوان أبعت له جوابات عليه ومرضتش أديله عنواني خوفًا من جدك حسن

بعد اللقاء بسنتين اتجوزت من باباك الله يرحمه تحت ضغط حياة جديدة في مقابل إني مكونش سبب في موت جدك لو رفضت، ومنعني

تعب جدك في أول ذكرى إني أروح إسكندرية والقدر كمّل وفي نفس التوقيت ده من العام التالي كان الفرح واتجوزت باباك

يقيني بإن مفيش أمل إني أغير واقع اتفرض عليّا خلاني محاولش أراسل عمر اللي كنت قابلته صدفة في إسكندرية، وده احتراماً لوالدك اللي هيبقى جوزي وفي نفس الوقت عشان عمر يفكر في حب تاني ويبدأ حياة جديدة وميفضلش متعلق بوهم

حب والدك ليّا وحنانه وخوفه عليّا كانوا أكبر سبب إني أكون مخلصة ليه وإني أكون رغم حبي للرجل التاني مقدرش ولا أفكر حتى إني أقابله في إسكندرية في نفس اليوم من كل سنة، أو إني أراسله، واحتفظت بمشاعري وحبي وأخلصت لوالدك بكل ما تحمله الكلمة من معنى

وأنا كان عندي مشكلة صحية زي ما حكتلك كتير أشبه بالعقم ومع ذلك باباك كمّل وأصّر ميتجوزش عليّا وزاد حبي ليه أكتر لكن كان برضة حب لزوج فاضل مش حب لحبيب خاصة لو كان أول حب لبنت، وخلفناك بعد عشر سنين وكنت أجمل فرحة في حياتنا وسمّيتك عمر على إسمه وقلت إن ربنا عوضني بيك عن فرحة إتمنتها ومعشتهاش، وكانت سعادة جدك حسن بيك متتوصفش خاصة إنك جاي بعد طول انتظار وخاصة إنك حفيده الوحيد

ورغم مرور كل العمر ده، مازلت وافية لوالدك رغم وفاته وكذلك وافية للذكرى حب مخلص بدأ ومانتهاش، عارفة إنك مستغرب كلامي يا عمر لكن متأكدة إنك هتفهمه كويس. كل وصيتي ليك إنك تروح في نفس اليوم ده في المكان اللي كنت كل ما

بنزل إسكندرية باخدك ونروحله أنا وإنت عند الصخور وإنت كنت تسألني ليه بتحبي المكان هنا رغم إنه مفيهوش حاجة مميزة وفي أماكن أجمل وأنا كنت بصلك وبضحك وبسكت... كنت باخدك وبنروح في مواعيد بعيدة كل البعد عن ميعاد مقابلتي له

كل اللي بطلبه منك إنك تروح في أول ذكرى لنفس اليوم بعد وفاتي، عارفة إنك هتلاقيه هناك إحساسي طول العمر اللي فات بيقول كده، لو لاقيته عرّفه اللي حصل معايا عشان يسامحني على إني اتخليت عنه وعرفه إني القدر منعني من إني أوفي وعدي له أول مرة، والإخلاص ثم المرض كانوا المانع الآخر والأخير، وعرّفه إني موتّ وخليه يدعيلي ويسامحني وأتمنى إنت كمان تسامحني يا عمر...

مامتك أحلام

***

لم تبخل أحلام على ابنها بالحقيقة، ولم يبخل عمر على نفسه باكتشافها، ولكن في حين أشفق عمر على الرجل الخمسينيّ من وجع الحقيقة، كانت أحلام تشفق عليه من وجع الوهم، وفي كل الأحوال ماتت أحلام، ومازال الرجل الخمسينيّ هائمًا بين حقيقة الوجع ووهمه؛ ممسكًا بآخر وريقات الأمل في وردة انتظاره التي لا تذبل ولم تذبل رغم مرور كل تلك السنوات الخريفية.

وقد وجد عمر بجانب ما وجد في حقيبة ذكريات أمه، أسفل فستانها الوردي، رسالة قديمة كانت قد كتبتها أمه لعمر الخمسينيّ، تعود إلى حوالي ثمانية وعشرين عامًا، رسالة كُتبت ولكنها لم ترسل ولم تصل، حاولت فيها أحلام قدر الإمكان انتشال عمر من مأزق الانتظار، لكنها وبعد تفكير عميق فضّلت ألا ترسلها

حبيبي عمر..

إزّيك.. أخبارك إيه يا أعز الناس؟ يا أجمل صدفة وأحلى حلم ربنا حققهولي.. أنا اترددت كتير أكتبلك بس كتبت، ومترددة أبعتلك الجواب ده ومش عارفة إذا كنت هقدر أبعته ولا لأ، بس عارفة إن كل كلامي واصلك من غير جوابات

طمني عليك يا عمر.. وإزيّ المطواة اللي إنت شايلها واللي فضلت أدعي كتير محدش يشوفها معاك وإنت مروّح ليفكرك مجرم ولا حاجة، مع إنك مش كده، وفي نفس الوقت إنت كده، لأنك سرقت قلبي من أول لحظة وملكته، كانت أجمل سرقة في حياتي

عارفاك زعلان مني إني مجتش في اليوم اللي اتفقنا نتقابل فيه، بس والله ظروف خارجة عن إرادتي ومش بإيدي، عارفة إنك أكيد روحت وانتظرتني وأنا كانت روحي معاك حاضرة وبترفرف فوق منك زيّ الفراشة

ومش عارفة يا عمر هضطر أخلف كام وعد معاك في العمر اللي جاي، أوقات ممكن يبقى نفسنا في حاجة بس مش بنعملها مش لأننا خايفين لكن لأننا حابين إن الحاجة الحلوة تتعمل صح، لأن عمرنا ما هنعمل حاجة صح بطريقة غلط

إنت ممكن متفهمش كلامي لكن هتحسه، وإفهم إني عمرى ما اتخليت عنك ولا نسيتك، رغم إني كنت في ظروف صعبة تنسّي أي حاجة، بس إنت الحقيقة الوحيدة في حياتي يا عمر..

أنا عاوزة أطلب منك طلب يا عمر، عارفه إنه صعب بل وممكن يكون مستحيل، بس أنا نفسي إنك تتجوز وتبدأ حياة جديدة لأني لظروف خارجة عن إرادتي مش هقدر أشوفك تاني ومش هقدر أجيلك إسكندرية في المكان اللي إتقابلنا فيه

أنا عارفة إن الطلب ده ممكن يخليك تكرهني، بس مش مهم تكرهني، المهم إنك تحب حياتك وتعيشها ومتستناش إنسانة مش جاية، أنا ممكن أكون مظلومة زيّك بالظبط، بس هيبقى صعب إني أكون بظلمك وإنت أجمل حاجة حصلتلي في حياتي، وبتمنالك كل خير، كل خير يا عمر

أحلام

لم تعلم أحلام أنه في الوقت الذي كانت تكتب فيه رسالتها تلك لعمر، كان عمر لا يكف عن كتابة أشعاره لها، رباعياته في حبها هي وحدها، تلك الرباعيات التي ألقى منها هو على ابنها بعضًا منها، حتى انبهر من شدة إعجابه بها، لدرجة أنه كان يدمع وقت أن ألقاها عليه

عمر الخمسينيّ، لأنه كان يتخيل كيف ستكون فرحة أمه بهذه الكلمات التي كتبت لأجلها فقط، وكيف كانت ستكون أسعد نساء الدنيا بأشعار شاعرها العظيم. رجل لم يكن حبه أبدًا أقوالًا أو كلامًا أو مجرد أحاديث عاطفية، ولكن كان حبه أفعالًا، وكانت أفعاله أكثر إبهارًا من كلماته الجميلة، ولهذا هو استحق لقب رجل!

كتب عمر الخمسينيّ في أجندته أشعارًا كثيرة لأحلام، جنبًا إلى جنب مع حكاياته عنها، وعن انتظاره الطويل لها بجانب بحر الإسكندرية، الذي شهد مولد حبهما..

(1)

يارب؛ يا قلبي تسمعنا

أحلام..الاسم والمعنى

مُنايا وبس للصدفة

مرة تانية تجمعنا!

(2)

عيد ميلاد حبي ليكي

بجيبه هنا.. وحديّا

ضيوفي فيه همّا عنيكي

وبحر.. إسكندريّة!

(3)

إتقابلنا بس كان وقت اللُقا

بينا صعب

ورغم الألم والدموع والشفى

باقِلنا حب!

(4)

شوقي فات كام سنة

وكُلّي عندك يا أنا

وكل يوم لازم أقابلك

رغم إنك مش هِنا!

(5)

بساوي الصف..

وبصلّي وبدعيلك

وبتلو الحرف..

فيسمّع تراتيلك!

(6)

فاكراني ولا خلاص نسيتي

واللقا أصبح مُحـــــال؟!

قومتي في منامي جيتي

وعاتبتيني عالســـــــــؤال!

(7)

قلبي قايل فـــ السكوت

كلام عنيكي تردده

قلبي.. آيل للسقوط

وقلبك إنتي بيسنده!

(8)

أنا من غير هواكي وحيد

بشبه.. الورد الدابل

لكني من جوايا سعيد

عشان.. مسيرنا نتقابل!

(9)

لسه باجي في الميعاد

وبفتكر كل اللي كان

حلمي.. ينتهي البعاد

وترجعي لنفس المكان!

(10)

مهما البُعد يا خدني

عيوّنا في يوم هتتلاقى

وأضمك تاني في حضني

وعارفك ليّا مشتاقة!

***

هكذا هو عمر الخمسينيّ، أخلص في كل شيء تجاه أحلامه التي لم تأتِ، وعاش معها وهي غير موجودة بجسدها؛ لكنه التقى روحها، وجعل روحه وقلبه في خدمة قلبها، وكتب لها وعنها وفيها ما أثقل أجندته الكبيرة، التي أوجز فيها حتى أنجز تفاصيل الحكاية، وأثقلها بما نقله من هواجسه وأحلامه ونومه، الذي لا يفصله عن واقعه، وإنما بات مجرد حلقة متصلة به.

عاد عمر العشرينيّ إلى القاهرة، وهو شاب جديد بالكاد وجد مفاتيح وإجابات كفيلة بأن تجعله يواجه أصعب أبواب الحياة، وأقسى أسئلتها. وعاد عمر الخمسينيّ إلى دمنهور، حيث يمكث فيها معتمًا في انتظار أن يجيء اليوم الذي يُشرق فيه من جديد، هناك، في الإسكندرية، عند صخرته العزيزة، وبحره الذي لم يملّ منه، وأحلامه التي مازال يخلص في انتظارها رغم الأمل الضئيل!

الفصل السابع

أحلام لا تموت!

(1)

أنظر إلى المرآة وهي تطرد بقايا الماء المتناثر عليها، وأرى صورتي فيها باهته ضبابية.. أمسح بكفّ يدي اليُمنى أثر الماء، فتظهر صورتي تدريجيًا، كأنني قادم من بعيد إليّ.. أنظر إلى نفسي، أرى عينيّ مثقلتين بالدموع، وتحتهما مساحة داكنة من أثر القلق المستمر.. أشعر أنني شخصان ولست شخصا واحدا؛ أحدهما يقف هنا والآخر يقف في المواجهة، هناك، خلف هذا اللوح الزجاجي الشفاف. هي ليست مرآة إذن.. وأرى في الأفق تساؤلات الآخر، تساؤلات جمّة!

لماذا تهرب من الحقيقة؟!

لماذا تنكر كل ما أنت بت على يقين منه؟!

لماذا تصمم على أن أحلام مازالت على قيد الحياة وأنت تيقنت من موتها؟!

لماذا عندما رأيت ذاك الشاب، الذي به ثلاثة أرباع ملامحها واسمك لم تستحلفه بالله أن يخبرك بالحقيقة؟!

لماذا لم تواسيه عندما بكى بحُرقة وأنت تروي له شغف ما يريد معرفته عن هذا الرجل الذي اقتنص قلب أمه أحلام؟!

لماذا لم تحضنه حضنا أبويا، يجعلك تشم فيه عبير ما كنت تتمنى أن تستشعره منه كأب له؟!

لماذا لم تعطه عنوانك، أو تأخذ رقم هاتفه المحمول كي تتواصل معه، كي تبقى على صلة مع عمر رائحة أمه وابتسامتها وقطعة منها؟

فجأة وجدتني في هذا الفيض من تساؤلات الآخر، تساؤلاتي.. أبكي بشدة، حتى كسرت هذه المرآة التي فتحت عليّ أبواب الجحيم، تلك الأبواب التي أحسنت تغليقها لسنوات كثيرة، وأجدني بعد أن كسرتها قد عرّتني من كل ما حاولت أنا مواراته. أراني أتصبَّب عرقًا، وأرى الشَيب ظاهرًا في شعري، وأرى دموعا لامعة في عينيّ، والتجاعيد على وجهي تتضخم كأنها على وشك أنا تبتلعني داخلها، وبالكاد أشعر بالدماء تنزل من يدي.

أبكي أكثر، وأنا أتذكر ما رأيته في دموع عمر الصغير من فقد الأم، وما رأيته في دموعه من فقدي أنا، فقد حبيبتي، حب العمر، أحلام!

لم أرد أن أواجهه بالحقيقة المُرَّة، واحترمت رغبته في الرأفة برجل مثلي فقد كل شيء، ولم أرد أن أشعره بأنني مهتم به، كي لا يشك في معرفتي به، ولم أرد أن أفتح مجالا آخر للحديث أو للقاء، لأنني أعلم جيدًا أنني ربما لن يمهلني العمر مرة أخرى كي أجدد فيها ذكرى حبي.

كنت أحكي له وأستعيد معه ما مضى، وأنا أتحايل على كل ما يتشكّل أمامي في وجوده من اليقين.. اليقين المؤلم الجاثم على صدري

كأنه جبل ثقيل، مما يجعلني أجد راحتي في أن أرتكن للوهم من جديد، فالوهم مُريح لا يحتاج إلى ضريبة مثل اليقين، لذا تحايلت على عقلي بقلبي، وعلى أفكاري بمشاعري، وعلى اعتقادي بظنّي، وعلى ما توقعته بما أتمناه، بأن أحلام لم تمت.

ولكن إلى متى سوف أنكر؟!

إلى متى سوف أتوهم؟!

إلى متى سوف أتحايل؟!

إلى متى سوف أهرب من الحقيقة الموجعة إلى الوهم المُريح؟

لم يعد في العمر بقية، أنا أخلصت في الانتظار، وهي أخلصت في البعاد، أنا أخلصت في الحضور وهي أخلصت في الغياب، أنا أخلصت في أن أقتنص من العمر لحظات معها، وهي أضاعت كل اللحظات التي كانت من الممكن أن تجمعني بها.. هي كانت مضطرة، لكن لا أحد يضطر أن يخسر قلبه ومشاعره وحبيبه بسبب الظروف. الظروف هي الشمَّاعة التي نُعلّق عليها خيباتنا وهزائمنا!

ومع ذلك، لو كانت أحلام لم تخلص لي بعد كل هذا العمر، وبعد كل هذا الانتظار، لما كانت أرسلت ابنها في هذا اليوم بالتحديد، إلى هذا المكان بالتحديد. بالتأكيد هو كان يحمل لي رسالة منها، آخرها أنها ماتت؛ رأيت في دموعه ذلك، ورأيت في تعبيرات وجهه – مع حكاياتي عنها – ذلك، كان يتفاعل معي في مسرح هذه الأحداث كبطل وليس كمشاهد، كجزء من الحكاية وليس كمستمع لها.

رأيت في عينيه فستانها الوردي الجميل، وقرأت فيهما رسائلها التي كتبت ولم ترسل ولم تصل، ورسائلها التي لم تكتب ووصلت، وشممت في رائحته رائحتها، واستشعرت روحها الهائمة حولنا كأنها كانت حاضرة من خلاله، كأنها أرادت أن تفي بوعدها لي بعد موتها، فاحتاجت جسدًا يستضيف روحها ويستضيفني إلى جواره، بجوارها، ولم تكن لتجد أفضل من عمر الصغير كي يتوسط لها عند عمر الكبير، يتوسط بين روحها وجسدي، كأن أحلام لم تأتِ للقائي كُلِّيَّةً، بل جاءت لي بجزء منها، جزئها الأعز، جاءت بجزء من جسدها ولكن بروحها كاملة، كي تلتقي جسدي الهزيل وروحي المثقلة بتلابيب الألم!

كنت أضحك مع عمر وأسايره، وأمنح نفسي فرصة أولى وأخيرة أن أتعرّف عليه، أن أعرفه أكثر، كنت أتغلّب على هول ما.أشعر به من ألم ألمَّ بي بوجوده. كنت أحكي له عن واقعي وأحلامي، أتشارك بتفاصيل من حياتي معه، لأنه يستحق أن يعرف، لأنه يستحق أن يحفظ الحكاية!

إذن.. أحلام ماتت!

هي حقيقة قديمة جديدة، أحلام ماتت منذ أن فقدتها، ومنذ أن أصبحت ذكرى، ومنذ أن اقتنصت أنا كل لحظات القُرب لها والتمنّي بأن ألقاها، واقتنصت هي كل لحظات التخفّي والهروب مني واستمرأت الفراق

أحلام ماتت!

ولم يستجب الله دعائي بأن تموت بَعدي وأن أنتظرها هناك تأتي إليّ قافزة من مركب الدنيا المضطرب.. ولم يستجب الله دعائي بلقاء واحد آخر، ولو أخير.. ولم يستجب الله دعاني بأن أُعوض عمر.. لم يَعد من الممكن أبدًا تعويضه.

أحلام ماتت!

وبدلًا من أن أضمّ عمر في حضني، وأصرخ بين ذراعيه كأنني طفل، وأشد من أذر فقدانه أيضًا، هو كذب عليّ وأنا كذبت عليه، تحمّلنا الزيف وتجمّلنا، هو ادّعى أنه غريب، وأنا ادّعيت أنني غريب، ونحن أقرب ما يكون. هو حمل رأفة تجاهي بألا يصدمني بحقيقة موت أمه، وأنا حملت رأفة تجاهه بألا أصدمه بأنني قد تيقنت منه بذلك!

لم أرد أن أشعره بأنه الطَعنة الأخيرة والضربة القاضية ونَفَس الحياة الأخير، لم أرد أن أُشعره أن بداية وجوده نهاية حكايتي، وأن حضوره هو كل غيابي!

أحلام ماتت، وعمر خطّاب يجب أن يموت!

هذه المرة يجب أن أستدعي مشهد انتحار عظيم، يليق بحب عظيم.. مشهد ينتشلني من هذه الدنيا إلى العالم الآخر، كي أقفز أنا من مركب الدنيا المخروق، حيث أجد أحلام هناك في انتظاري. بالتأكيد تنتظرني هناك، حيث لا قيود ولا عادات ولا تقاليد، ولا بشر يحسنون إقامة المتاريس بين أحلام القلوب البريئة الصافية.

هناك بالتأكيد أفضل، حيث أحلام جنتي، وقلبها أرضي، وعينيها سمائي، وضحكتها بحري، وحضنها كوني الواسع الفسيح، هناك كل ما أتمنى؛ هي!

ولكن كيف سيكون انتحاري؟.. وكيف سيكون وداعي لهذه الدنيا الغاضبة عليّ، الحانق عليها؟

عقلي الباطن كأنه في سُبات عميق لا يجتهد مع خيالي في الوصول بي إلى نهاية تليق، ثمة مشاهد عالقة في ذهني، منها مثلًا أن أقف فوق كرسي، وأضع رقبتي داخل حبل مربوط بإحكام في سقف غرفتي. ولكنه مشهد قديم وتقليدي ومبتذل ولا يليق!

إذن ماذا لو أمسكت المطواة التي استأذنت الصخرة في أن تستضيف اسمي واسم أحلام عليها وشهدت مولد حبي وحياتي بأحلام، وأقطع بها شراييني، فتكون هي مَن سطرت البداية وهي مَن سطرت النهاية؛ أو بالأحرى البداية الجديدة. ولكنه أيضًا مشهد قديم وتقليدي ومبتذل ولا يليق!

ماذا لو صعدت فوق أعلى بناية ممكن الوصول إليها، وأقفز من فوقها؟ فهي سوف تمنحني في ثوانٍ بين الحياة والموت، حياة البرزخ التي سوف تمكنني من رؤية مكان أحلام، فأهبط إلى الأرض تاركًا جسدي الممزق عليها، وأرتقي إلى السماء بروحي إلى روحي وبأحلامي إلى أحلام، أقفز كي أموت فأحيا.. ولكن احتمالات النجاة قائمة، قد أنزل على سيارة ممتلئة عن آخرها بالقطن أو الملابس مثل تلك المشاهد التي أراها في الأفلام، وبالتالي سوف أجازف خاصة أنني

في بلد لا يمنح فرصة حقيقية للحياة، ولا يمنح حتى فرصة حقيقية للموت.. حيث لا أنت لك الحق في اختيار طبيعة حياتك، ولا أنت لك الحق في اختيار حتى طبيعة موتك!

أفكر قليلًا.. ولما لا يكون انتحاري بالقرب من مكان مولد حكايتي الجميلة، بالقرب من البحر، خاصة وأنه خليلي وشريك أحلامي؟ أنا رغم حبي للبحر لا أجيد العوم فيه، وربما نزلت البحر مرات معدودات، وكذلك لما لا تكون صخرة اللقاء التي جمعتني بأحلام هي صخرة القفز من حياتي تلك إلى حياتي مع أحلام، إلى حياة جديدة في عالم جديد.

إذًا، وجهتي مع شروق فجر الغدّ إلى البحر، سوف أمنحه مشهد الوداع، أو سوف يمنحني هو. إذن هذه ليلتي الأخيرة، سوف أستلقي على ظهري مرتديًا ملابس اللقاء الأول كاملةً، واضعًا بجواري نظارتيَ الشمسية، مطوايَ القديمة، أجندتيَ العزيزة..

سوف أنام في ليلتي الأخيرة تلك، ممنيًا النفس أن أحلم بها، لعلها تخبرني بمشهد انتحار آخر يليق بلقائي بها بعد كل هذا الفراق، وراجيًا عقلي الباطن أن يمنحني حلما أخيرا، يجعلني ممتنًا له ما تبقى من عمري القصير، أو حتى كي أغفر له ما آلمني به فيما مضى من عمري الطويل، خاصة وأنها ليلة طويلة بحجم اشتياقي أن تنتهي وتمر، وبالتالي هي تحتمل من عقلي الباطن أن يمنحني مشاهد لا نهائية. ولكنني لا أريد منه فيهم سوى مشهد واحد فقط، ينتهي نهاية جديدة، نهاية سعيدة.

غدًا، وأنا ذاهبٌ إلى البحر، سوف أكون بملابس اللقاء الأول والأخير، وسأصطحب معي نظارتي الشمسية، ومطواتي العزيزة، وأشتري وردة جميلة كي أهديها لأحلام فور لقائها. ولكنني سوف أترك أجندتي هنا بمجرد أن انتهي مما أريد كتابته فيها قبل أن أنام، بعد أن أفرغ من أن أكتب فيها كتابتي الأخيرة!

(2)

أقف على الصخرة، وأنظر إلى البحر وأترجاه أن يبتلع جسدي، وأحاول قبل ذلك أن أتحسس أحرف اسم أحلام على الصخرة وأنا أدمع. هي للمرة الأولى دموع فرح، لأنني وأخيرًا قادم مني إليها. وبينما أنا في غمرة ذلك، أرى من بعيد فتاة قادمة نحوي، ترتدي فستانًا ورديًا، جمالها أخاذ، تشاور لي بيدها..

إنها أحلام!

وبينما تقترب أكثر، وأنا أتأهب للقفز من فوق الصخرة لأتجاوز السور الخفيض كي أستقبلها بحضن -لن أتركها تدعه وترحل هذه المرة أبدًا- أرى ملامح وجه تلك الفتاة ليست ملامح وجه أحلام، رغم أنها كانت هي منذ قليل!

يا الله.. إنها نسرين!

لا أعرف كيف اندفعت نحوها، وأخذتها في حضني وبكيت.. ولا أعلم لما كان في الأفق محمد عبدالوهاب مبتسمًا، وعلى الجانب الآخر من الطريق أبي وأمي يبكون، وفي منتصف المسافة صديقي فارس يجلس وينظر إليّ وهو يحمل في يده اليمنى مرآة كبيرة للغاية، أكبر من

قدرته على حملها، لكنه يحملها بكل بساطة، وأراني في مرآته.. أرى وجهي وظهر نسرين، ولا أجد ذراعيّ على ظهرها، كأنني لم أحركهما، وأن نسرين هي من تحضنني بين ذراعيها. وأرى في المرآة أحلام وهي تقف خلفي، كأن جسدي وجسد نسرين لوحا زجاج شفاف لم يمنع عينيّ من رؤيتها في المرآة تبكي خلفي. أسمع صوت أحلام تناديني، وأنا غير قادر على الرد.. تستحلفني بالله أن أعود إليها، وأنا غير قادر على الانفكاك من بين ذراعيّ نسرين.. تستحلفني بالله ألا أتركها هكذا، وألا أخذلها هكذا، وأنا غير قادر على فعل أيّ شيء!

ألتفت برأسي يمينًا، فأرى فتاة رقيقة بملابس بيضاء، مبتسمة وهي تتحدث إلى رجل أربعيني بملابس بيضاء أيضًا، ويتحدثان بمنتهى التفاهم. بعض كلماتهم باللغة العربية والأخرى باللغة الإنجليزية، وفي المساحة الخالية بينهما مسافة صغيرة، تمنحني رؤية الطريق خلفهما، على الأرض في الطريق زجاج متناثر ومفتت لسيارة ما، وآثار دماء متفرقة.

وفجأة أجدني وحيدًا وأجد نسرين على الأرض في وسط الطريق تحاول أن تُجمّع هذا الزجاج المتناثر ويساعدها في ذلك صديقي فارس بعد أن ترك المرآة معلقة على الرصيف، وخلف نسرين يقف أبي، وخلف فارس تقف أمي، أحاول أن ألتفت كي أجد أحلام فأجدني أخيرًا قادر على الالتفات والحركة

أرى أحلام تسير أمامي وتلعب اللعبة التي لعبناها سويًا، وتنظر لي مبتسمة، وتطلب مني أن أسير خلفها، أفرح لأنها المرة الأولى التي يتم فيها تنفيذ ما تمنيت، كي لا أفقدها مرة أخرى، وبالكاد أبدأ اللعب معها، حتى أجدها اختفت في المرآة المُعلّقة، وأجدني واقفًا أمام المرآة ولا أرى صورتي. أبكي، وأنادي على أحلام بأعلى صوتي.. ولكنها لا ترد.

يعلو صوتي، حتى يتهشم زجاج المرآة ويتفتت، وأجدني أتصبب عرقًا، وأجد زجاج المرآة المتناثر قد التحم مع زجاج السيارة المتناثر على الطريق، فتحولا إلى بحر لونه فضيّ. أجد أمي وأبي ونسرين وفارس غارقين فيه، ومع ذلك لا يستنجدون بي أن أنقذهم، بل وأرى في عيونهم نظرات الشفقة عليّ؛ كأنني أنا الغريق. وأرى أحلام تجلس خلفهم على صخرتنا مبتسمة تناديني، فأقفز في هذا البحر، كي أنتشل أحبابي وأصل إلى حبيبتي.. أقفز، وأشعر أنني قفزت إلى عالم آخر، عالم مختلف، عالم جديد!

الفصل الثامن

أحلامِ عمر!

(1)

يجلس عمر بجانب أحلام، في المكان الذي التقيا فيه أول مرة، يشرح لها كيف أن الليلة الماضية كانت صعبة عليه للغاية، وأنه استحضر في ليلته حيوات كثيرة، واحتلته هواجس عدة، وعاش تفاصيلا كثيرة وأحداثا طويلة. ليلة واحدة فقط، وصل به خياله الجامح فيها إلى أفكارغريبة ومريبة. يحكي لأحلام ما رأي في ليلته، وهي تنصت باهتمام وتدمع بخجل، خاصة عندما حاول أن يصف نفسه وهو صاحب الخمسة عقود وارتدائه ملابس مثيرة لفضول العابرين وملفتة لانتباه الناظرين، وكيف أنه –رغم انقضاء كل ذلك العمر– كان حريصًا على أن يأتِ إلى هذا المكان الذي يجلسان فيه سويًا في هذه اللحظة، يحكي لها عن أحلام هذا الرجل الخمسيني الوفيّ، يحكي عنه، عن أحلامه هو، عن أحلام. يحكي لها عن الوردة الحمراء، والمطواة، واسمه واسمها على صخرة بالقرب من البحر..

تضحك أحلام، وتطلب منه أن يفعلا ذلك، لأنه أمر رومانسي للغاية. يحكي لها عن وفائه، وعن أنها لظروف خارجة عن إرادتها ولمرضها لم تستطع أن تقابله. يتحاشى الحديث عن موتها، ويتحاشى

الحديث عن الشاب الذي كان اسمه عمر؛ ابنها، والذي سُمي على اسمه، والذي قابله في صدفة مقصودة، وحكى له حكايتهما. يدمع عمر لمجرد تذكره لأحداث موتها ولوحدته الطويلة تلك، وتلحظ أحلام ذلك.

تفتح أحلام حقيبة يدها، كي تخرج منديلا تعطيه لعمر، كي يمسح دمعاته تلك.. تزيح كتابًا في حقيبتها كان فوق المنديل، وما تلبث أن تعطيه المنديل، حتى تطلب منه ألا يدمع، وتخبره أنهما لن يفترقا أبدًا، كما لم يفترقا من قبل!

يمسك عمر يد أحلام، ويخبرها أنه للحظة تخيّل أنه فقدها وانتهت حياته، وأنه لا يريد أن يفقدها أبدًا، وأن هذا اللقاء، رغم أنه اللقاء الثاني بينهما، إلا أنه حسم أمره بأن يذهب لوالدها كي يطلب يدها، كي تصبح زوجته. تباغته بسؤال عن أسماء أبنائهما في المستقبل، فيُجيبها عمر:

-لو جت بنت هسميها أحلام.. حبًا فيكِ

-يا عمر والله سبقتني.. كنت هقولك أنا مش هسمّي غير عمر لو خلفنا ولد.. عشان يبقى عندي عمر كبير وعمر صغير وهما الاتنين عمر أحلام كله

-أكيد هيبقى ولد جميل زيّ مامته وجدع وبيسمع كلام مامته أيًا كان اللي بتطلبه منه صعب، أنا متخيل تفاصيل ابننا عمر كأني شفته يا أحلام، كأني قابلته واتكلمت معاه وكلّمني.. وعاوز أقولك إني مشتاق من دلوقتي إني أشوفه تاني

تضحك أحلام، وتسأل عمر:

-وإنت شفته أولاني يا عمر؟

-لا يا حبيبتي أقصد إن مشتاق جدًا أشوفه، ابني حبيبي عمر عمر

-بس الناس هتتريق عليه أكيد لما يبقى اسمه عمر عمر

-مش مهم الناس يا أحلام.. المهم إنك تشوفي عمرك الكبير وعمرك الصغير وتناديهم بالاسم اللي حبتيه، وأنا كمان لما هقول لبنتي يا أحلام، هبقى بنادي على بنتي الصغيرة أو بنتي الكبيرة إنتي، المهم أنا وإنتي، سعادتنا أهم من كلام الناس ومن تريقتهم، الناس في كل الأحوال مش بيرحموا حد!

-طاب ولو جه ولد تاني هتسميه إيه؟

-ممممم ممكن أسميه فارس.. بحب الاسم ده جدًا

-اسم حلو.. وبعدين حلو يبقى عندنا ولدين عمر وفارس وبنت اسمها أحلام.. على خير يا حبيبي، ربنا يجمعنا بيهم على خير، المهم دلوقتي اتصرفلي في مطواة ووردة يا إما هصرخ وأقول الناس إنك خاطفني

يضحك عمر، ويحاول أن يطلب منها تأجيل تنفيذ ذلك الطلب الجنوني حتى يتسنى له تنفيذه؛ فلا أحد يبيع مطواة هنا على البحر،

ولا أحد يفكر أن يبيع الورد، لأنه لم يعد أحد يشتري الورد. فتباغته أحلام:

-طاب مش إنت قلتلي إمبارح إنك شاعر وبتكتب شعر

-أيوة فعلًا!

-ومش قلتلي كمان إنك هتكتبلي قصيدة وتقولهالي بُكرة اللي هو النهارده يعني

-أيوة يا روحي

-طاب قول يلا.. أنا كُلّي آذان صاغية

-طاب إديني دقيقة بس أفتكرها أصل أنا كتبتها فعلًا بس نسيت الورقة قبل ما أنزل، كنت نازل بسرعة من لهفتي إني هشوفك يا حبيبتي

يحاول عمر أن يتذكر تلك القصيدة المرتجلة.. هي ليست قصيدة رائعة، لكنها بالتأكيد سوف تنال إعجاب أحلام كما نالت إعجابها سابقًا.. نعم يتذكر كثيرا من شطورها، لأنها لم تكن صعبة، كانت كلمات سلسة وبسيطة، كانت قصيدة سهلة. وتترجاه قائلةً:

-ها يا عمر.. قول بقى يلا.. سمّعني يا شاعر

-حاضر يا ستي

-ها؟

"يا أحلام عمري اللي جيَّ

إتولد حبك هنا

إنتي نورِك ليّا ضيّ

وكلامك ده غُنا

وشوفت روحك مالها زيّ

يا حبيبتي.. يا أنا!

يا أحلام عمري بحاله

يا جميلة.. وفاتنة

إنت حبك حلم جاله

وحقق ليه كل المُنى

من أول لحظة نداله

وروحي بيه مطمنه!"

***

أحلام سعيدة للغاية بتلك الكلمات الجميلة التي كتبت من أجلها، هي تعتبرها قصيدة مقدسة، لأنها أول مرة تشعر أنها تملك شيئًا ما، تملك قصيدة، ولكنها تتيقن أنها تملك ما هو أجمل من أيّة كلمات، تملك عمر، عمرها..

تعطي أحلام كتابها لعمر، وتطلب منه توقيعًا بأسفل الكلمات التي أصرّت أن تكتبها وهو يلقي القصيدة. يشعر عمر بأن ثمة واقع يتكرر أو خيال يُعيد تكرار الواقع، يفرح عمر لطلبها، ويفكر فيما يكتب، أو يحاول أن يتذكر الجملة التي كُتبت سابقًا..

يأخذ القلم من يد أحلام، ويشرع في كتابة الإهداء أسفل الكلمات، يكتب عمر:

-"أهدي تلك الكلمات إلى أحلامي التي أحارب بها العالم كله.. أحلامي أنا وحدي.. عُمَرِك"

تفرح أحلام بهذا الإهداء الرقيق الراقي الرشيق، وتُمسك الكتاب وتحتضنه، كأنها تحتضن طفلها العائد للتو من غياب طويل، وتقول لعمر:

-عاوزة أطلب منك طلب بس بجد مكسوفة

-قولي يا حبيبة عمر.. إنتي تؤمري مش تطلبي

-هات إيديك اليمين كده يا عمر

يطاوعها عمر، وتُمسك أحلام يده، وتُقبلها قُبلة خجولة جميلة، تجعل عمر يسحب يده سريعًا وهو متفاجئ مما تفعله أحلام.. مفاجأة أحدثت في جسده قشعريرة خفيفة، بركان من العواطف والمشاعر الجميلة تفجّر داخله من هذه القُبلة، التي تحمل في طيّاها كل معاني الحب والتقدير والامتنان والفرحة. يشعر عمر في عينيّ أحلام فرحة بالغة، تجعله سعيدا للغاية. تقول له أحلام:

-شكرًا على أجمل إهداء من أجمل شاعر في الدنيا وأجمل عمر في حياتي

يباغت عمر أحلام بطلب هو الآخر، يقول لها:

-مش إنتي طلبتي مني طلب ووافقت علطول

-أيوة طبعًا

-طيب أنا عاوز منك طلب

-قول يا عمر.. اتفضل طبعًا

-ممكن تغمضي عنيكي

-لا يا عمر طبعا مش مغمضة.. أنا عارفة اللي هتعمله استغفر الله العظيم.. عيب يا عمر.. مش موافقة.. لا

يقاطعها عمر مبتسمًا، ويطلب منها أن تتوقف عن ثورة الرفض العارمة تلك، ويخبرها بأن طلبه يتفق مع شرعيتها ودستورها، الذي لا يمكن أبدًا أن ينقلب هو عليه. ويترجاها بأن تنفذ طلبه فقط، وأن تغمض عينيها لثوانٍ معدودة. فتطاوعه أحلام، لأنها تعرف أن عمر يحبها حبًا أكبر من أن يخذلها فيه بما لا تتوقعه منه. أحلام تعلم جيدًا أن عمر عاشق حق، وليس عاشق باطل!

نزولًا على رغبة عمر، تغمض أحلام عينيها لثوانٍ معدودة، وما إن تفتح عينيها، حتى تجد عمر ممسكًا بعلبة شيكولاتة أنيقة ورائعة، وما تلبث أحلام أن تخطفها من يده وهي تهلل مثل الأطفال، وتشكره بشدة، تشكره للغاية قائلةً:

-ميرسي يا عمر ،، ميرسي يا حبيبي.. بس إنت عرفت منين إني بحب الشيكولاتة

-عادي يا حبيبتي.. في بنت قالتلي

-نعم؟ نعم يا عمر؟؟ بنت مين يا عمر؟ رد يا عمر؟!

-كل ده "عمر" يا أحلام.. مش معقول كده

-يا عمر أرجوك رد.. بنت مين؟!

-هرج معاكي والله، السؤال الصحيح نصف إجابة، وسؤالك مش في محله، لأن مفيش بنت مش بتحب الشيكولاتة يا قلبي، وبعدين علاقة البنات بالشيكولاتة عامةً من العلاقات الغريبة اللي تدخل ضمن الأسئلة الوجودية في شقها اللي مبيحتملش أي أجابات مقنعة أو ردود مفيدة.. حاجة كده زيّ الميتافزيقيا

-إنت بتقول إيه يا عمر.. مش فاهمة حاجة.. بس خلينا في المهم

يضحك عمر، ويسألها:

-وإيه المهم ده بقى يا ستي؟!

-بمناسبة "بنت قالتلك" اللي طلعت تهريج دي يا عمر.. مين أول بنت حبتها بقى؟.. يعني أكيد حد في وسامتك كده وفي رقتك وشاعريتك ودماغك دي حَب واتحب أكيد، ها.. مين بقى يا عمر؟

-والله إنتي أول حب في حياتِ يا أحلام زي ما أنا متأكد وواثق إني أول حب في حياتك. لكن أكيد في إعجاب من بعيد لبعيد كده،

وصل الإعجاب ده لقمته مع بنت كانت جارتي إسمها "نسرين" ، كان إعجاب مش حب بمعنى حب يعني

-وحبتها إزاي بقى يا سي عمر؟

-بقولك محبتهاش!

-طيب يعني أعجبت بيها إزاي يعني؟

-عادي كنت بشوفها صدفة من ورا شباك البيت وهي مروّحة من المدرسة، وساعات كنت بحاول أعمل أي موقف عشان أشوفها في الشارع وهي معدّية وألفت انتباهها ليّا، شغل مراهقة وكده بتاع ثانوي يعني

تضحك أحلام نصف ضحكة.. وتسأله:

-طاب إيه عرّفك بقى يا عمر إن حبك ليا حب مش إعجاب وخلاص؟.. مش حالة وهتنتهي في لحظة زي ما انتهى إعجابك بالبنت التانية دي؟

-تصدقي وجعتيني يا أحلام.. بتشبهي نفسك بإيه بس.. وبتقارني مشاعري ليكي بشغل مراهقة. عاوزة تعرفي الإجابة يا أحلام، بصي في عيني واسمعي كل اللي يريحك، اسألي قلبك. واعرفي منه الإجابة، إنك حب عمري الأول والأخير..

أحلام متيقنة من حب عمر، وتعلم جيدًا صدق مشاعره تجاهها، كما تتيقن من أنه حبها الأول والأخير. ولكن أحيانًا تحاول الفتاة أن تستنطق مَن تحبه؛ لا من أجل أن تتأكد، ولكن من أجل أن يُعيد عليها

سماع ما تعرفه هي. الكلام هو السحر الذي لا تستطيع أي فتاة أن تقاومه، خاصة وإذا كان هذا الكلام صادق وصادر من حبيب، الكلام فتنة المرأة!

تحاول أحلام أن تثلج صدرها بإجابة أخرى مريحة لن تفيد كثيرًا، ولكن من أجل أن تسمع الإجابة من عمر، تسأل عمر:

-وفينها بقى ست نسرين دي يا سي عمر؟

-اتجوزت من سنتين يا أستاذة أحلام، وبجد لما كبرت شوية اتأكدت إنه كان إعجاب طفولي وبتاع مراهقة ثانوي مش أكتر يعني

أحلام سعيدة للغاية بهذا الرد، وسعيدة أنه مجرد حب مراهقة وأن نسرين تزوجت بالفعل، وتقول لعمر:

– طاب الحمد لله إنها اتجوزت.. يعني نقدر نقول إنها أخت فاضلة وكده الحمد لله، ربنا يفرحها زي ما فرحت قلبي واتجوزت بدري بدري كده وخلصتنا من إعجاب سيادتك بيها ووقفتك ورا الشباك يا مراهق.. يا عمر يا مراهق

يضحك عمر وهو سعيد للغاية، لأنها المرة الأولى التي يستشعر فيها غيرة أحلام عليه، وهي أيضًا تضحك لأنها فرحت بثقة عمر في حبها له، ويقول لها برقة بالغة:

-بحبك يا أجمل أحلامي

-بحبّك يا كل عمري.. وكان عندي طلب

-اؤمري يا قلب عمر مش اطلبي بس

-نفسي أروح سينما

(2)

يجلس عمر في المقعد الأخير داخل سينما فارغة، ليس فيها أحد سواه، وهي مظلمة بالكامل رغم أنها بلا سقف، والشمس ساطعة بالأعلى والجو حرّ للغاية، ومع ذلك يرتدى عمر ملابس ثقيلة، شتوية أو خريفية، ويتطلع إلى الكراسي الفارغة أمامه ويتعجّب من كونها كذلك، ومن كونه يجلس في الصفّ الأخير رغم أنه لا يوجد أحد غيره بالسينما، وبالتالي لا يوجد أحد يجلس على الكراسي الأخرى بالصفوف الأمامية

وما يلبث أن يتحرك إلى الأمام حتى يسمع صوت أحلام يملأ القاعة، وفجأة يجد الصوت قادمًا من شاشة السينما العملاقة ويجدها أمامه – هي نفسها – على الشاشة، يدقق النظر ظانًا أنها شبيهة لها، أو أنه يتخيلها.. ولكنه بالفعل يجدها هي، مرتدية فستانها الوردي، وتتحدث إلى شخص ما. ولكن الشاشة منقسمة إلى نصفين، نصف ملوّن تقف فيه أحلام وهي مرتدية الفستان الوردي، والنصف الآخر من الشاشة أبيض وأسود، حيث يجلس رجل يبدو وكأنه في مطلع الثلاثينات من عمره مرتديًا جاكيت أبيض وبنطال غامق ويرتدي طربوشًا.

يدقق عمر النظر فيه، فيجد الشخص الواقف أمام أحلام هو محمد عبدالوهاب، وبالفعل يسمع صوته وهو يتحدث إلى أحلام قائلًا:

– إن كان على ظروفي فتأكدي انها ألعن ظروف خلقها ربنا، أولًا أنا مقطوع من شجرة، ولا فيـ ن حد يهتم إن كنت أدخن ولا أنحرق، ثانيًا أنا ساكن لوحدي في شارع قصر النيل ومحمد السفرجي سابني إمبارح وطفش

تقاطعه أحلام قائلةً:

– بسّ أحبّ أعرف أنا بكلم مين

فيرد عليها عبدالوهاب قائلًا:

– بتكلمي مين؟.. بتكلمي شخص مخلوق جديد لا نج من عشر دقايق.. مالوش ماضي يُذكر.. وفي الغالب مالوش مستقبل.. مالوش غير حاضر جميل يدوم كمان بالكتير خمس دقايق

يقترب عبدالوهاب من أحلام للغاية، وهي واقفه أمامه في قمة الخجل، وعمر في قمة الثورة والاستغراب والغضب منه، فيصرخ بأعلى صوته كي يترك عبدالوهاب أحلام وشأنها، حتى يكاد يشعر أن قاعة السينما كأن بها زلزال من صرخاته. وبمجرد أن يسمع عبدالوهاب صوت عمر، حتى يترك أحلام ويهرب. وأثناء هروبه، يقع منه الطربوش الذي يرتديه، وتنظر أحلام إلى عمر مبتسمة، ثم يجد عمر شاشة السينما قد تحولت كلها إلى شاشة ملونة وليست مقسومة نصفين كما كانت، وتقف فيها أحلام وحدها بفستانها الوردي، ثم ما تلبث أن تقفز منها أحلام إلى قاعة السينما، وتصفق لعمر قائلةً:

- برافو يا عمر برافو

- برافو على إيه؟

- كنت بختبر غيرتك مع أكتر حد بتحبه وبتحب فنه

- ده مش اختبار.. إنتي كده بتضايقيني منك ومنه

- يا حبيبي إنت صدقت، أنا اتفقت مع أستاذ عبدالوهاب إنه يعيد معايا جزء من مشهد هو عمله في فيلم ليه

- أيوة صح أنا الكلام اللي قاله مش غريب عليّا، سمعته في فيلم ليه قبل كده

- حزر فزر فيلم إيه بقى يا مجنون عبدالوهاب؟

- أنا فاكر اللي عملت معاه المشهد.. الأستاذة راقية إبراهيم.. اللي إنتي كنتي مكانها دلوقتي.. وفاكر إنه غنالها بعد الكلام ده أغنية حكيم عيون

- برافووو صح يا عمر.. بس قوللي بقى اسم الفيلم

- والله عارفه بس اسمه رايح من بالي.. اسمه غريب شويّة

- اسمه "رصاصة في القلب" يا عمر

- صح أيوة هو رصاصة في القلب صح.. وبعدين أنا مجنون أحلام مش مجنون عبدالوهاب

تفرح أحلام بغيرة عمر، ويفرح عمر لأن شكّه كان مكيدة من أحلام، ويجد نفسه ممتنًا لعبدالوهاب أنه قبِل أن يقوم بمثل هذا المشهد؛

وهو-ليس مضطرًا لذلك. ثم فجأة يجد هاتفه المحمول يرنّ، مكالمة من صديقه فارس، فيخبره عمر بما حدث من عبدالوهاب، فيفرح فارس ويثني على عبدالوهاب، ولكنه يعتب على أحلام أنها وضعت عمر في مثل هذا الموقف، الذي جعله على وشك أن يدخل في مشادة مع مطربه المفضل، ويؤيده عمر في رأيه ثم ينهي المكالمة مع فارس.

يحاول عمر أن يتجاوز الكراسي التي أمامه كي يصل إلى أحلام عند الشاشة، ولكنه يجد نفسه غير قادر على عبور تلك الكراسي، كأنها حواجز خرسانية ضخمة أكبر من قدرته على تجاوزها، فينادي على أحلام ويطلب منها أن تأتِ هي إليه. ولكنه يراها مُبتلَعة داخل الشاشة العملاقة.. تصرخ أحلام، ويصرخ عمر خوفًا عليها، حتى يسمعا فجأة صوت عبدالوهاب يدندن قائلًا:

- "حكيم عيون أفهم فى العين.. و أفهم كمان ف رموش العين.. أعرف هواهم ساكن فين.. و أعرف دواهم ييجي منين..قاسيت كتير منهم وقريت كتير عنهم"

يفرح عمر للغاية، لأن صوت عبدالوهاب قد انتشله هو وأحلام من تلك اللحظة المرِيبة، فيرددان الأغنية سويًا وهما يقتربان من بعضهما البعض، ويرى عمر فستانها الوردي الرائع يتحرك من تأثير الهواء عليه، بينما عمر مرتديًا جاكيت أبيض وبنطال غامق وطربوش، يقتربان للغاية، حتى يضمّها عمر في حضنه ويتنفس هواها، ويشعر بأنفاسها تغزو مسام روحه، فيبتسم ويشعر بابتسامة أحلام ترتسم على قلبه. وفجأة، يرى شاشة السينما العملاقة تحولت إلى بحر كبير، بحر يعرفه، بحر الإسكندرية الذي يحبه.

(3)

نسمات البحر تمنح عمر وأحلام شعورًا مُبهجًا، يكاد يجعل الصخرة التي يجلسان عليها تنطق وتتبادل معهما كلام الحب والفرح. ورغم ذلك، يستشعر عمر في عينيّ أحلام دمعات مختبئات خلف ستار جفونها. هو يعلم سبب تلك الدموع، وهو أن أحلام قلقة من مجرد ألا يلتقيا مرة أخرى، ولكنه -ورغم علمه بالإجابة- كان لزامًا عليه السؤال. يسأل أحلام:

-مالك يا حبيبتي؟!

-خايفة يا عمر..

-تخافي وإنتي معايا؟!.. خايفة مني؟!

-خايفة عليك مش منك، وخايفة منتقابلش تاني.. لو ضعت مني هموت يا عمر لأن كل أسباب الحياة بالنسبالي إنت.. إنت عمري يا عمر

-إنت عمري دي أغنية أم كلثوم على فكرة

-إنت غلس يا عمر.. غلس والله

تبكي أحلام ويعلو نحيبها، حتى يضمها عمر في حضنه، ويخبرها بأنها لن تترك حضنه أبدًا، ويعدها بذلك. تضحك أحلام وهي تدمع، ثم تفلت من بين ذراعه وتضرب كتف عمر الأيمن بيدها اليمنى، ضربة رقيقة للغاية. ويضحك عمر، ويمسك يدها، ثم يُقبل يدها ويعدها أنه لن يتخلّى عنها أبدًا، وأنها أيًا تكون الظروف فلن يتركها ولن يفترقا أبدًا. ثم تطلب منه طلبًا ملحًا:

-يلا نلعب يا عمر اللعبة اللي لعبناها قبل كده أنا وإنت

-إنتي مجنونة.. يعني في عز الجدّ اللي إحنا فيه ده، وإنتي بتفكري في اللعب، أما إنك طفلة صحيح

-أيوة طفلة وإنت بابا.. ويلعب نلعب يا بابا.. قوم يا بابا

يضحك عمر من ردّها الرقيق الذي أسعده، وكأنه حرّك مشاعر الأبوة بالفعل داخله تجاهها، خاصة وأنها تطلب منه اللعب وسط هذا الكمّ من البكاء والضحك، وهي ممسكة بيده، ويسألها عمر:

-طاب لعبة إيه؟!

-كمان مش فاكرها يا عمر.. لحقت تنساها.. معقول؟!

-أيوة أيوة قصدك لعبة الرصيف

تمسح أحلام آخر دمعاها العالقات على خدها، وتهزّ رأسها إيجابًا، ثم تقول لعمر:

-أيوة هي دي.. أيوة يا عمر

-خلينا قاعدين مع بعض أحسن يا حبيبة عمر، واحشني أشوف البحر وأبصله كده وإنتي جنبي ومعايا

-البحر مش هيطير يا عمر.. والله لو ما لعبت معايا اللعبة دي حالًا هخاصمك ومش هاكل الشيكولاتة وهعيط تاني

-يا حبيبتي بس براحة واهدي..

-ماليش دعوة يا عمر يالّا يالّا يالّا

يضحك عمر ويطاوعها كي تكف عن إلحاحها الطفولي.. وبالفعل يجذب عمر يدها، ويقفز من فوق الصخور مجتازًا السور الخفيض، وينزل أولًا على الرصيف، ثم تسند أحلام على كتفه وتنزل برفق على الرصيف. يبدأ عمر السير أمامها، وهي تسير خلفه فوق خطواته، حتى بدأ يسرع خطواته، وهي خلفه تسرع معه إليه، حتى يقف فجأة، فتصطدم به، وتضحك فيضحك هو أيضًا ضحكات طفولية صاخبة.

يكملان السير، يسير هو أمامها، وتسير هي وراءه، كما يحدثها وهي ترد، وفجأة يسرع هو، يسرع أكثر، يحدثها وترد، ويسرع أكثر، أكثر، ويحدثها فلا ترد، ويلتفت وراءه ولا يجدها!

يبكي ويبحث عنها في كل مكان، كأنه طفل بالكاد فقد أمه، يجري ويبكي وينادي اسمها بصوت متحشرج..

ينادي عليها: "أحلام.. أحلام".. كأنه لاجيء طُرد للتو من جنة وطنه..

يصرخ بأعلى صوته "أحلام.. أحلام.. أحلام".. وهي لا تسمع، ولا ترد!

يجد عمر صدى ندائه صامتًا لا يحرك ساكنًا، يشعر أن الكون كله يتكاتف ضده، وأن الكون يخ بها خلف هذا المجهول أمامه، يظنها أبعد من هذا الظلام القريب البعيد..

بعد كل تلك المسافة من الوجع، يفكر في أنه ربما لو عاد إلى المكان الذي كانا يجلسان فيه فسوف يجدها.. فيجري أسرع، على أمل أن يجدها. وبالفعل، يعود إلى المكان، ولا يجدها، يحاول أن يجد النقش على الصخرة، فيجد الصخرة ولا يجد النقش.. يفتش في جيبه كي يجد المطواة، فلا يجد المطواة.. يحاول أن يتذكر عما كان يبحث، فلا يتذكر، يسأل نفسه عن نفسه فلا يجد رد!

يضحك ضحكات صاخبة تكسر الصمت المريب المحيط به من كل الأرجاء، ثم يبكي، ثم يجري ويقف فجأة.

يحاول تمثيل اللعبة من جديد، كأن أحلام تلعب معه، ينادي عليها فيسمع صوتها، يفرح، يهلل فرحًا، كأنه طفل يلعب مع رفاقه يوم العيد. ويفكر للحظة أنه لو أكمل اللعبة فلن ترد.. يلتفت فجأة كي يمسك بها قبل أن تقفز في متاهة البعد، ويحاول أن يتلقفها، ولكن لا يجدها.. ينادي عليها، ولا ترد نداءه.

يفتش عنها في كل مكان ولا يجدها، ويفقد أثرها. يصرخ بأعلى صوته "أحلام.. أحلام.. أحلام".. وهي لا تسمع، ولا ترد!

الفصل الأخير

بداية النهاية!

صيف الإسكندرية – 2013

(1)

يقف شاب عشرينيّ أمام غرفة العناية المركزة بإحدى المستشفيات الكبرى بالإسكندرية، وتبدو على وجهه كل علامات القلق والضيق والأرق، ويستفسر من طبيب للتو خارج من غرفة العناية المركزة عن حالة صديقه الأعز عمر خطّاب، والذي دهسته سيارة منذ يومين أثناء عبوره الكورنيش بالقرب من منطقة ستانلي.

يسأل الشاب الطبيب وهو في غاية الارتباك والتوتُّر، ويلتفت من حين لآخر إلى الفاصل الزجاجي بينه وبين صديقه عمر، الراقد على السرير وسط كم مهول من الأجهزة الطبية، يسأل الطبيب:

-طمني يا دكتور لو سمحت.. عمر حالته عاملة إيه دلوقتي؟

-الحمد لله أحسن يا فارس.. مش عاوزك تقلق.. ولازم تريّح إنت بقالك يومين منمتش

-مش هيجليلي نوم وأنا شايف أقرب إنسان ليّا بين الحياة والموت وفاقد جزء من وعيه وعنده تشويش وفي غيبوبة

-معلش ده ربنا ستر الحمد لله.. وواحدة واحدة هيبدأ يسترد وعيه بالكامل ويفوق ويتكلم، هو الحمد لله تجاوز المرحلة الحرجة ومفيش مضاعفات مقلقة

-الحمد لله.. بس حضرتك مستبشر خير يا دكتور يعني؟

-طبعًا كل خير كمان خاصة وإنه من وقت للتاني بيتكلم وبيقول كلام بشكل متقطع

-كلام زيّ إيه يا دكتور؟!

-من وقت للتاني بيقول كلمات معينة زيّ "أحلام" و "البحر" و "المطواة" و "الوردة".. بيقول كلام كتير بس دي الكلمات اللي بيرددها أكتر.. وده زيّ ما قولتلك مؤشر إيجابي إنه الحمد لله بيستجيب

-يارب يا دكتور.. يارب تبقى الكلمات دي مفتاح رجوعه لوعيه بشكل كامل

-معلش يا فارس.. ممكن أعرف مين أحلام دي؟ واحدة قريبته؟ ولا هو يقصد أحلام بيحلمها يعني؟ لأنه بيقول الكلمة دي كتير والممرضات اللي بيتابعوا حالته بلغوني بكده

-لا يا دكتور.. أحلام دي حبيبة عمر وإن شاء الله هتبقى خطيبته قريب

-ربنا يوفقهم وربنا يقوم صاحبك بالسلامة.. ده قدر ربنا يا فارس وإنت مؤمن وعارف.. المهم أرجوك طمن والد عمر ووالدته هما نايمين بره في الاستراحة وطمن البنت اللي بره دي اللي مش مبطلة عياط دي.. دي أحلام صح؟

-لا دي نسرين بنت عمه وأكتر من أخته

-طاب طمنهم يالا وإن شاء الله خير.. آه نسيت أقولك حاجة.. عمر كان بيغني أغنية لعبدالوهاب.. غنى حتت منها والممرضة سمعته بالليل وهو بيدندها، صاحبك.شكله سّميع يا فارس

فارس مبتسمًا، يخبر الدكتور بأن عمر يحب محمد عبدالوهاب للغاية، بالتأكيد – وهو يستعيد شريط حياته في هذه الغيبوبة المؤقتة – أنه سوف يتذكر أغاني يحبها له، فيثني الدكتور على ذوق عمر وحسّه الطربي، ويخبر فارس بأن عليه أن يذهب لأهل عمر كي يطمئنهم على حالته التي أصبحت أفضل من ليلة أمس بكثير، فيرد عليه فارس قائلًا:

-حاضر يا دكتور.. أنا سايبهم بس يريّحوا لأنهم مناموش طول الليل، ما بين الوقفة هنا بيبصوا على ابنهم اللي بين الحياة والموت، أو الصلاة والدعاء ليه، ربنا يعينهم، الموضوع صعب عليهم جدًا وحضرتك عارف

-طبعًا يا فارس.. وعارف إن الموضوع صعب عليك إنت كمان، وعاوزك إنت كمان تريّح.. عمر بقى أحسن.. وهو على وشك إنه يفوق وأول ما يفتّح عنيه ويبدأ يستعيد تركيزه ووعيه بالكامل يبقى الحمد لله بقى تمام جدًا وإحنا منتظرين ده يحصل خلال الساعات الجايّة.. إن شاء الله خير.. بعد إذنك يا فارس

-اتفضل يا دكتور

يقف فارس، ويضع كفيه على زجاج غرفة العناية المركزة، ويثبت عينيه على عمر، يتأمل صديق عمره وأخاه الذي لم تلده أمه وشريك

كل تفاصيل حياته، ويتذكر كل مواقفه الرجولية معه وذكرياهما المشتركة منذ الطفولة.. يتذكر لعبهم الكرة في الشارع سويًا، وأيام الدراسة التي جمعتهما في كل المراحل، حتى تفرقا ودخل كل منهما كليّة مختلفة عن الآخر. تفرقا، ولكنهما كانا يلتقيان أربع مرات على الأقل أسبوعيًا.

يتذكر فارس صدمته الكبرى وقت أن تم تبليغهم بحادثة صديقه، وأنه لا يعرف كيف جاء هو وأهل عمر من دمنهور، حيث محل إقامتهم، إلى الإسكندرية حيث مكان الحادث، وأن المسافة كانت ساعة زمنية، لكنها بحسابات القلق والوجع والدموع والخوف كانت عمرًا بالكامل، ولحظات لا يتمنى أن تتكرر مرة أخرى.

يتذكر الليلة الأولى، وكيف كانت ليلة مريبة ومؤلمة، وصديق عمره بين الحياة والموت، والأطباء يحاولون مداواة جسده الذي لا توجد فيه مساحة صغيرة سليمة وهو مكتسٍ باللون الأحمر، لون الدم. سيارة مندفعة يقودها متهور كادت تودي بحياة صديق عمره صديقه عمر، وتودي بحلمه الذي بالكاد كان وليدًا في يومه الأول، بعد طول انتظار. هرب المجرم دون أن يقف أو أن يحاول مساعدته، هرب من عدالة الأرض، ولكن عدالة السماء بالتأكيد في انتظاره.

يحاول فارس أن يتذكر أيّ من التفاصيل الذي ذكرها عمر له عن أحلام خلال المكالمة الهاتفية التي كانت قبل الحادث بقليل، وبعد لقاء أحلام مباشرة، أو أي من الحكايات التي كثيرًا ما حكاها له عن

أحلام، لعله يحاول أن يجدها ويأتي له بها، فتعود ذاكرته كاملة ويعود وعيه كاملًا.

ثم فجأة يتغير وجهه، ويتذكر أن أحلام بالتأكيد بعد أن ودعها عمر حاولت أن تطمئنه عليها أو تطمئن عليه، وعمر منذ 48 ساعة خارج نطاق الخدمة، بعد أن تهشّم هاتفه تمامًا، وأنها بالتأكيد قلقة للغاية عليه، وهي بالتأكيد سافرت لأنها كانت قد أخبرت عمر بأنها سوف تظل في الإسكندرية يومين فقط، لأن والدها مرتبط بعمل مهم في القاهرة، وأنه جاء للإسكندرية نزولًا على رغبة ابنته أحلام، وأنها لن تستطع أن تراه اليوم الثاني للقائهما. يشفق فارس على أحلام مما هي فيه الآن، لأنه يعلم أن القلق يوجع أحيانًا أكثر من الأخبار المفجعة نفسها، لأنه في لحظات القلق نتصور ما هو أبشع!

ثم ما يلبث أن تأتيَ له فكرة يظنها عبقرية، هي فكرة بديهية للغاية.. يتذكر كيف بدأت معرفة أحلام وعمر من خلال "الفيس بوك"، وكيف أن عمر استشعر مع الوقت أن صداقته لأحلام تحولت إلى قصة حب متبادلة، ولذلك طلب عمر منها أن يأتي للقاهرة كي يقابلها أو أن يتقابلا في الإسكندرية في هذا الصيف؛ وكان الحل الثاني هو الأرجح. يفكر فارس أنه لو بحث عن حساب أحلام على "الفيس بوك" عند عمر سوف يجدها، ويرسل لها رسالة ويخبرها بما حدث كي تأتيَ مسرعة، ويعود وعي عمر كاملًا إن رآها أمامه، ويشفى من كل أوجاعه إن كانت روحه قد أصابها شرخًا مثل جسده.

ولكن بعد قليل من التفكير، يجد أن عمر كثيرًا ما أخبره بأن أحلام من عائلة محافظة، وفكرة عودتها للإسكندرية بعد رجوعها للقاهرة فكرة مريبة، وسوف تقلقها هي من ناحية على عمر للغاية وتجعلها من ناحية أخرى في موقف شك من قبل أهلها. لذلك، يجد تأجيل الفكرة إلا إذا أصبح حضورها أمرًا اضطراريًا – إن استدعى الأمر – حتى لو شُرح الموقف لأهلها، وبالتأكيد هم سوف يتفهمون أن حضور ابنتهم للإسكندرية لإنقاذ حياة إنسان هو أمر أكبر من أي قلق أو شك أو ريبة.

يفكر فارس في ضرورة طمأنتها دون أن يطلب منها أن تأتي، ويفكر أن أحلام بالتأكيد تعاني من انقطاع عمر عنها هذين اليومين، وبالفعل حاول فارس الدخول من حسابه كي يبعث رسالة لأحلام، ولكنه وجد أن قائمة أصدقاء عمر مغلقة، وبالتالي هو لا يستطيع أن يرسل لها رسالة من حسابه الشخصي، وبالتالي هو أمامه حل واحد ووحيد، وهو أن يحاول الدخول إلى حساب عمر على "الفيس بوك" ويرسل رسالة إلى أحلام من عند عمر، خاصة وأنه يعرف "إيميل" عمر، ولكنه يواجه مشكلة أنه لا يعرف كلمة المرور السرية. ولكنه يجد أنه لن يخسر شيئا من مجرد المحاولة.

بالفعل يمسك فارس هاتفه المحمول المتصل بالإنترنت، ويكتب "إيميل" عمر على موقع "الفيس بوك"، ويفكر فيما يمكن أن تكون كلمة عمر السرية، فيبدأ بكتابة اسم عمر ثنائيا وتاريخ ميلاده، ولكن يجد أنه خطأ، ثم يحاول مرة أخرى فيكتب اسم والدة عمر مع اسم

والده، ولكن يجده أيضًا خطأ.. ويفكّر في أن عمر لن يجد أفضل من اسم أحلام كي يكون هو كلمة السر التي لا يعرفها سواه، فيكتب اسم أحلام ثنائيا، ولكن يجد أيضًا أنه خطأ، ثم يكتب محاولته الأخيرة، يكتب "Ahlamomer"، وبالفعل يجد نفسه قد دخل إلى حساب عمر على الفيس بوك، فأحلام هي كلمة سر عمر وهي سر كلمة عمر، يفرح فارس، ويدخل على "الإنبوكس" ويجد عشرات إن لم تكن مئات الرسائل من أحلام، كلها مليئة بالقلق والتوتر والخوف، خاصة وأن هاتف عمر مغلق منذ أن فُقد في الحادث.

يكتب فارس لأحلام رسالة نصّها كالتالي:

"مساء الخير يا أحلام.. أنا فارس صديق عمر وأخوه.. بطمّنك عليه ومش عاوزك تقلقي، هو بخير الحمد لله.. هو بس تعبان شويّة وموبايله ضاع منه وطلب مني أكلمك وأطمنك وهو في أقرب وقت هيكلمك بنفسه.. دعواتك ليه.. وربنا يجمعكم على خير"

(2)

كانت أحاديث عمر وأحلام "الفيسبوكاوية" الممتدة لساعات، ونهل كل منهما من تفاصيل الآخر ومشاعره وحكاياته أمرًا مثيرًا للإعجاب والاستغراب من جانب فارس، خاصة وأن عمر من الذين كانوا لا يعترفون بالحب من خلال الإنترنت. ولكن أحلام قلبت كل موازين أفكاره ورؤيته لكثير من الأمور والحياة، حتى أنه أخبر فارس في مرة بأنه بدأ الالتزام في صلاته، بعد أن اتفقا هو وأحلام على ذلك، وأنه كثيرًا ما دعا لها في صلاته أن يقابلها، وأن يبدأ حلمه معها، وأن تتحول صداقتهما الإلكترونية وإعجابهما المتبادل وحبهما المبتدئ إلى حب حقيقي، حب كبير بحجم مشاعرهما.

حيث إنه مع الوقت تحوّلت الصداقة بينهما إلى إعجاب، ثم تحول الإعجاب إلى درجة من درجات الحب، تمثل أهم مقدمات الحب الحقيقي، حتى أن أهم ما أشار إليه عمر في مكالمته لفارس بُعيد لقاء أحلام وقُبيل الحادث، هو أنه وللمرة الأولى في حياته يسمع كلمة "بحبَك" وتهز وجدانه وتعصف بدواخله، وتجعله على وشك أن يدمع من الفرح. وأنه لأول مرة في حياته يقول كلمة "بحبِك" وهو يشعر أن

أحرف تلك الكلمة خارجة من صميم قلبه، من قلب قلبه إلى قلبه وقبلته، إلى قُبلة حياته وحياة قَلبه، روحه وراحته، قمة أحلامه، الى أحلام.

لم ينم عمر ليلة لقاء أحلام، كان مثل طفل صغير ينتظر شروق صباح العيد، يجلس جانب فارس وأمامهما على الحائط ملابس عمر الجديدة غارقة بين صور عبدالوهاب، تلك الملابس التي اشتراها خصيصًا للقاء أحلام، ملابس جديدة قديمة، لأن عمر لا يعترف بالموضة وملابس الشباب؛ كلاسيكي بطبعه. يسند عمر رأسه على ذراعه، وينظر في فضاء السقف كأنه ينظر إلى السماء، ويقول لفارس:

-يا ترى يا فارس هتيجي فعلًا ولا مش هتقدر أو مش هتعرف؟!

-إن شاء الله هتيجي يا عمور.. تفاءل كده يا أخي ده إنت التفاؤل كله

-تعرف أنا متلغبط.. حاسس إني طفل داخل على امتحان صعب.. أنا اللي عمرى ما هزتني بنت واتقالي كلمة بحبك كتير.. لكن المرادي حاسس إحساس مختلف، حاسس إن قلبي مش مبطل دق، مش بفكر غير فيها وبس

-يا زيدي يا زيييييدي.. أيوة يا جدعان.. عمر خطّاب اللي كل بنات مجمع كليّات طنطا بيحبوه وبيجروا وراه وقع يا جدعان.. محامي المستقبل والقانوني البارز خسر قلبه في قضيته الشهيرة مع أحلام.. كل البنات اللي راحت للسيد البدوي لأجل تكون كراماته سبب في تحريك مشاعر عمر ناحيتهم خسروا قضيتهم معاك وكسبتها أحلام بس

-أيوة يا غلس.. أحلام هي قضيتي الوحيدة الكسبانة.. وأي قضية غيرها خسرانة لأني مش عاوز أكسبها.. هي كل مكسب وكل حاجة حلوة

-طاب فاكر البنت اللي اسمها شيماء اللي كانت بتمشي وراك في مجمع الكليات وبتراقبك ولو شافت بنت قربتلك بتروح تشردحلها وتقولها تبعد عنك

-ههههههههه أيوة فاكر.. ربنا يهديها.. والحمد لله دلوقتي هي بعدت تمامًا بعد ما واجهتها بشكل عنيف وقلتلها إني مش ممكن أحبها وإني مرتبط.. كانت صعبانة عليا بجد بس كان لازم أعمل كده، الألم ساعات بيكون هو الدوا، وأنا دعيتلها كتير إن ربنا يرزق قلبها حد يستاهل حبها

-قصدك يستاهل شردحتها وجنونها.. على الله بس متلقيهاش طآبه عليك إنت وأحلام وبُكرة وتسمّع أحلام كلام عمرها ما سمعته

-دي طيبة يا فارس.. وبعدين خلينا في أحلام يا رخم.. أنا مش عاوز أفتكر غيرها ولا عاوز أتكلم عن غيرها.. هي كل كلامي وأحلامي وفرحتي وأملي

-بس ياض يا عمر أنا جسمي قشعر.. قدّر مشاعر أخوك شويّة

يضرب عمر فارس في كتفه، وهو في لحظة خجل وتبسُّم، وعيناه لامعتان من شدة الفرح، لكنها لا تستطيع أن تخفي قلقا كبيرا. وينظر في هاتفه المحمول، ويرى آخر وقت كانت أحلام موجودة فيه على

"الفيس بوك" بعد أن ودعته كي تنام، لأنها سوف تسافر مع أهلها إلى الإسكندرية باكرًا، فيجد أنها كانت موجودة منذ ثلاث ساعات، وقت أن قال لها في آخر حديثهما "الفيسبوكي" معًا:

-أنا هتولد بكرة يا أحلام

-وأنا كمان.. أنا مش مصدقة.. عارف أنا مش هنام أصلًا.. من الفرحة

-وأنا كمان مش مصدق.. ومش عارف أول ما عيني تشوف عنيكي هبقى عامل إزاي.. وأول ما أشوفك من بعيد كده هقدر أتحرك إزاي.. أنا حاسسني هقف تمامًا ومش هعرف أقولك ولا كلمة

-يا سلام.. طاب أنا أعمل إيه بقى.. إنت ولد وأنا بنت.. وبعدين إنت شاعر وأمور كمان وحواليك معجبات كتير.. يعني واخد على كده.. وبعدين إنت عارف إني بحب إسكندرية.. بس بغير عليك بسببها.. لأن إسكندرية يعني رانديفو وبحر وبنات حلوة.. وبغير إنك بتنزلها لوحدك كتير يا عمر.. بس يلا أهو أخيرًا هينوبني رانديفو من رانديفوهاتك ياسي عمر!

-كده برضة يا أحلام؟!.. ده أنا مكتبتش الشعر غير لعنيكي.. ومش باجي إسكندرية غير عشان أبص للبحر وأكلمه عنك حتى من قبل ما اعرفك.. كنت دايمًا بحكي للبحر عن حبيبتي اللي مستنيها واللي كنت متأكد إني هقابلها جنب البحر.. وعمري ما شوفت غيرك في الدنيا.. إنتي حبيبتي.. والبنت الوحيدة في حياتي.. إنت

كوكب لوحده أنا عايش فيه ومش عاوز حد معايا فيه ولا هسمح لحد ياخدني منه

-تسلم يا عمر.. عارفة يا حبيبي.. أنا بناغشك بس

-طاب بما إنك ناغشتيني.. أناغشك انا بقى.. قوليلي ليه اخترتي فستان لونه وردي بقى عشان تقابليني بيه؟

-عشان بحب الورد

-وأنا عشان بحب الورد حبيتك يا أحلام.. إنتي أجمل وردة في حياتي

-ميرسي يا بكاش.. وقوللي بقى إنت هتلبس إيه؟

-عادي يعني هلبس بنطلون أسود وقميص أبيض وعلى القميص تي شيرت خفيف نص كده لونه أحمر شبه البلوفرات بس شيك يعني

-هيبقوا حلوين عليك أكيد.. إنت بتحب تلبس كلاسيك يا عمر أفندي.. حبك للزمن القديم أحلى حاجة بحبها فيك.. مبسوطة إني هشوفك يا عمر أفندي ☺

يضحك عمر، ويخبرها بأنها أيضًا كلاسيكية مثله، وتحتفي بكل ما هو قديم مثله، وأنهما متشابهان للغاية حتى في نوعية الملبس، فيقول لها:

-على أساس يعني إنك لما هتقابليني بفستان وردي.. موضة يعني يا أستاذة فاتن حمامة؟

-هههههههه أيوة أنا كمان بحب الزمن القديم، لأنه ببساطة بسيط ومفيهوش تكلف، وأنا حبيتك عشان كده عشان مانتش متكلف وبتتكلم من قلبك يا عمر

-وأنا كمان حبيتك عشان مانتش متصنعة ولا متكلفة وبحس فيكي براءة وطفولة وحاجات حلوة كتير رغم إننا لسه ماتقبلناش ولا مرّة

-بس روحي وقلبي قابلوا روحك وقلبك يا عمر.. وربنا يجمعني بيك على خير بُكرة

-يارب يا حبيبة عمر.. عارفة أنا بسمع أغنية إيه دلوقتي؟

-أكيد حاجة لمحمد عبدالوهاب

-صح.. بسمع أغنية يا مسافر وحدك وفايتني

-ههههههههه أنا مسافرة لوحدي يا عمر؟.. عمك حسن اللي هو بابايا وباقي العيلة كلهم منورني بُكرة في السفر

-ههههههههه عبدالوهاب دلوقتي بيقول " على نار الشوق أنا هستنى.. وأصبَّر قلبي واتمنى..على بال ما تجيني واتهنى.. طمعني بقربك وأوعدني"

-الله جميلة أوي يا عمر.. يا طمّاع هههههه.. يلا بقى قبل ما اتقفش وبابا يقوللي ليه صاحية لحد دلوقتي، إنت عارف إزاي بابا صعب وشديد رغم إنه أحنّ أب في الدنيا

-عارف بس طالما مش هتنامي خليكي شوية كمان.. شوية صغيرين بس

-مش هينفع يا عمر والله.. وبعدين هانت كلها كام ساعة ونشوف بعض فيس تو فيس مش فيس بوك تو فيس بوك.. تصبح على خير يا عمر

-وإنتي من أهله يا أحلام عمر.. أول ما تصحي ابعتيلي رسالة طمنيني عليكي وعرّفيني إنكم اتحركتو من عندكم لأن أكيد مش هتعرفي تكلميني فون

-حاضر من عنيّا

-تسلم عيونك يا أحلام.. تصبحي على كل حاجة حلوة زيّك.. سلام يا قلبي

-سلام يا عمري

يتذكر فارس حديث عمر عن كل أحاسيسه المتضاربة والمتشابكة، توتره غير المعهود، تغيُّره الجذري بسبب أحلام، عن تغييره لرقم هاتفه المحمول كي لا تصل إليه أي فتاة ممن أحبوه أو تعلقوا به، وأنه كان يعي جيدًا أن رسم طريق المستقبل لا يتم دون تنقيح الماضي من كل الشوائب، كي يصبح الحاضر مشرقًا متوهجًا بحجم روعة مَن يحب.

ينظر فارس إلى عمر من خلف الفاصل الزجاجي، وينظر إليه والممرضة تتابع حالته عن قرب، ويطلب منه أن يستفيق كي يطمئنوا جميعًا عليه، وكي يُطمئن أحلام، وأنه بمجرد أن يستفيق سوف يطلب

منه أن يتحدث هاتفيًا إلى أحلام، بعدما توقعه من قلقها وما رآه في رسائلها المتوترة والقلقة.

ينظر فارس إلى عمر ويخاطبه وهو في غاية التأثر، قائلًا:

– يلا يا عمر.. قوم يا بطل يلا.. أحلام مستنياك، مستنياك بقلبها وحبها الكبير ليك عشان تكمل معاها حلمكم اللي يادوب لسه في أوله.. ومستنيك أهلك اللي كلهم بيدعولك وبيحبوك.. ومستنيك صاحبك فارس اللي واحشه سهركم وهزاركم، وواحشه نقسم اللُقمة سوا بالليل وإحنا ميتين من الجوع وواحشه لعبك معاه الكورة، واحشه حرفتنك، وواحشه الـ وان تو اللي مش بيعرف يعملها غير معاك.. والنبي قوم يا عمر وفرّحنا كلنا.. والنبي قوم يا عمر وخلينا نطلع من الغيبوبة اللي إحنا فيها بسببك.. هتقوم يا عمر أكيد والله هتقوم وتفرحنا.. هتقوم بإذن الله.. يارب يارب يارب

(3)

يحاول فارس أن يتمالك أعصابه، خاصةً بعد أن تذكر كلام الطبيب المطمئن، وأن يجد مكانًا يجلس فيه، خاصة وأنه لم يعد قادرًا على الوقوف، فيذهب إلى نسرين ابنة عم عمر، الفتاة التي أحبت عمر حدّ الجنون، واعتبرها عمر أخته التي تمناها، والتي تبكي منذ يومين دون توقف ودون نوم، ودون حتى قليل من الراحة.

يقف فارس بجوار نسرين، ويحاول تهدئتها وتبليغها بما ذكره الطبيب، وأن كلامه مُبشِّر للغاية، وأن عمر على وشك استعادة الوعي، خاصة وأن حالته مستقرة للغاية، وأنه تجاوز المرحلة الحرجة. تحمد نسرين الله على ما أخبرها به فارس، وتحاول بكفيها أن تمسح الدموع التي على وجهها، وتطلب من فارس أن يساعدها كي تدخل وترى عمر، وتقول له:

-والنبي يا فارس نفسي أشوف عمر ولو حتى من بعيد، الأمن بتا ع الباب الرئيسي لأوض العناية رافضين يدخلوني

-حاضر يا نسرين.. بس أرجوكي تهدي شوية.. عمر لو فاق وفتح وشافك كده هيزعل أكيد، وهيتعب أكتر

-خلاص هبطل عياط أهو، وهسكت، خليني أشوفه ولو حتى من ورا القزاز اللي على العناية

-حاضر يا نسرين.. تعالي معايا

تقف نسرين أمام عمر، وبينهما الفاصل الزجاجي، وتنهار بمجرد أن تراه مُبتلَعًا بين كل هذه الأجهزة، وترى الممرضة تتابع حالته عن قرب، وتتذكر كل اللحظات التي جمعتها بابن عمها عمر ولعبها هي وهو وأخوها محمود وفارس في الشارع، وقت أن كانوا صغارًا، ودفاع عمر عنها وقت أن تدخل هي في مشادة مع فتاة صغيرة مثلها في الشارع، أو مع أي طفل آخر.

وتتذكر وقت أن كان عمر يثريها بإبداعه الشعري، وقت أن كان يقرأ عليها بعضا من أشعاره الرقيقة، والتي كانت تتمنى هي للحظة أن تصبح صاحبة الحظ التي كُتبت من أجلها تلك القصائد، وحاولت كثيرًا لكن دون جدوى، وكانت تبحث معه عن نصف فرصة كي تأخذ دور بطولة، ولو بطولة مساعدة مؤقتًا، ولكن عمر كان يرفض ويؤكد لها بشكل مباشر وغير مباشر أنه لا يراها إلا أخته، ويتمنى أن يرزقها الله بقلب يقدر حبها وجمالها.

وترجاها عمر كثيرًا أن تتوقف عن التلصص عليه من خلف النافذة من بيت عمه المواجه لبيته، أو أن تفتعل مواقف كي تتحدث معه، ويخبرها بأنها لا تحتاج إلى مثل تلك الأمور، لأنها لها حق فيه وواجب عليه أن تجده وقت أن تريد، وأن تتحدث إليه وقت أن تحب أن تتحدث وتفضفض، وأنها لا بد أن تتعامل معه باعتباره أخيها الأكبر، الذي سوف يخاف عليها أكثر حتى من أخيها محمود.

وتتذكر نسرين كيف أنها مع الوقت اضطرت أن تتأقلم مع ذلك، وتُكيِّف مشاعرها لعمر كي يصبح أخاها. وأنه رغم كونه شعور صعب، لكنها باتت مضطرة لذلك. وتذكرت كيف أنها مع الوقت بدأت تحوّل حبها لعمر كي صبح حبًا أخويًا، وأنه بعد فترة تقدّم لخطبتها طبيب ناجح يحبها للغاية، وأنها وبعد تفكير عميق وحديث مع عمر حوله، وافقت عليه، وبالفعل تأكدت أن عمر أخوها مثل محمود، وكيف كانت فرحة عمر بها كبيرة للغاية في يوم خطبتها.

تيقنت نسرين بعد أن ارتبطت وأحبّت أنها لم تكن تحب عمر، بل كانت معجبة به ومتعلقة بوجوده، بحكم أنه الشاب الوحيد الذي يمكن أن تتحدث إليه. لكنها كانت ممتنه له لأنه احترم مشاعرها وصارحها منذ البداية، وأنه لم يوهمها بما لا يملك، لأنها ليست هي مَن تستحق، هي أحبت وضوح عمر ونقاءه وشعره، أحبته بعقلها ولم تحب بقلبها، ومع ذلك كانت تحمل مشاعر الغِبطة تجاه أحلام، حبيبة عمر التي لا يكف أن يُحدِّث نسرين عنها. أحلام الفتاة الوحيدة التي استطاعت أن تفوز بقلب عمر، وأن تكون هي بطلة قصائده وحكاياته وكلامه اليوميّ. أحبت نسرين حب عمر لأحلام، وأحبّت قلب وعقل أحلام اللذين لا يكف عمر أن يذكر محاسنهما لنسرين، وكذلك لصديقه فارس.

وما تلبث نسرين أن تأخذ نفسًا عميقًا، حتى تقول وهي تواري دمعة أخرى محتجبة، كأنها تحدث نفسها بصوت خفيض:

– يا بخت أحلام كسبت قلب كبير زيّ قلب عمر.. بس أنا كمان كسبته، هي كسبت عمر حبيبها الحالي وزوجها المستقبلي، وأنا

كسبته أخويا وصديقي وابن عمّي الجدع، ربنا يقوّمك بالسلامة يا أغلى عمر

ثم ما تلبث أن تنتزع من بين دمعاتها وحزنها وهول ما هي فيه بسمة رقيقة جميلة، لأنها تذكرت الليلة الأولى التي دخل فيها عمر غرفة العناية المركزة، عندما كان عمر في حاجة ماسّة إلى أكياس دم، وجاءت فصيلة دم نسرين وحدها مطابقة لفصيله دمه، وقالت للأطباء وقت أن بدءوا السحب من دمها كي يمنحوه لجسد عمر، أنهم لو احتاجوا دمها كله فليأخذوه، فداءً لأخيها العزيز عمر. تبتسم نسرين وهي تمسح دمعة جديدة هربت من قفص الاحتجاب، ثم تحدث نفسها هامسةً وهي تقول:

- يلا يا عمر قوم بالسلامة بقى، عشان أفضل أقولك كل ما أشوفك يا بني أنا دمي بيجري جواك.. عشان متقوليش تاني بعد كده إني معنديش دم لما بقعد أغلّس عليك، وأقولك أنا عندي دم زيّك بالظبط، وزيّ دمك بالظبط

وتكمل نسرين همسها قائلةً:

- يااااه يا عمر أنا بشكر ربنا إني منحني فرصة أقدملك فيها حاجة كويسة زيّ حاجات كتير عملتها معايا كويسة، عارفة إن ده ميجيش نُص وقفتك جنبي وخوفك عليّا ونصايحك ليّا.. بس بجد والله بشكر ربنا على الفرصة دي.. الحمد لله.. ويارب تقوم وترجع أحسن من الأول كمان.. يارب يا عمر

وقبل أن تكمل نسرين همسها، يقاطعها فارس، ويقطع خيالاتها الغارقة في تفاصيل ما مضى، ويُخرجها من حالة النوستاليجا، ويطلب منها أن تخرج من هذا المكان، لأن التواجد هنا لن يفيد وهو غير مسموح به نظرًا للحالات الحرجة الأخرى الموجودة بالقرب من غرفة عمر، وأنهما عليهما العودة للاستراحة كي يطمئنا والديّ عمر، إن كانا استيقظا بعد كل هذا السهر الطويل ليلة أمس، فتوافق نسرين بعد إلحاح.

وبالفعل يتحركان سويًا باتجاه الخروج نحو الباب الرئيسي لغرف العناية المركزة، في طريقهما لمكان الاستراحة، حيث يريان بالفعل والد ووالدة عمر بالخارج واقفان، بعد أن استيقظا من نومهما المتقطع المكتظ بالقلق والممتلئ بالأرق، يعم الحزن ملامحهما، ونظراتهما مليئة بالتساؤلات عن حالة عمر، وعما يمكن أن يكون قد قاله الطبيب عنه.

وما أن يقترب فارس ونسرين من الباب الرئيسي، حتى يسمعا صوت ممرضة تنادي عليهما، وهي تقول بصوت ليس منخفض وليس مرتفع؛ يملأه الأمل:

-عمر فتح وفاق.. عمر فاق الحمد لله.. عمر فاق..

الخاتمة

نهاية تؤول إلى بداية!

صيف الإسكندرية - 2013

(1)

جثة تطفو فوق سطح البحر لرجل خمسينيّ غلّقت المياه – التي هي أهم أسباب الحياة – كل منافذ التنفس لديه حتى مات. يتحرك جسده ببطء، كما كان يسير فوق الأرض مثقلًا بآماله وآلامه، بأحلامه وتمنيّاته، كأن البحر أراد أن يمنح صديقه القديم جنازة مهيبة وفرحا عظيما، جنازة بمنطق الدنيا التي تَكفّل فيها البحر أن يحمل جثته وحيدًا، حيث منتهاه إلى ألا يصبح وحيدًا مرة أخرى. وفرح مهيب بمنطق العالم الآخر، وبحجم ما هو ذاهب إليه، إلى أحلام.

يتحرك جسد الرجل الخمسينيّ بثبات وثقة فوق الماء، باتجاه الفرح الموعود، كأنه عريس يحمله رفاقه في ليلة زفافه. يتحرك ووجهه مواجه للسماء، متطلع إليها، مُشرق رغم تغيُّب الجسد وانسلال الروح منه. وترتسم على شفاهه الجافّة ابتسامة جميلة رقيقة، وتبدو ملابسه المبللة بالمياه كأنها في كامل رونقها، وكأنه في كامل وجاهته!

عمر خطّاب.. رجل استمرأ الألم من أجل الأمل، واستطعم الوجع من أجل الفرح، واستقطب الحاضر الذي لم يتمناه كي يهرب منه إلى

مستقبل تمناه، كي يهرب من حصار التوجُّسات والهواجس التي هزمه بها عقله الباطن ليالٍ عدة، إلى براح الحقيقة التي بها أحلام.

عمر خطّاب.. رجل تقبَّل الموت من أجل الحياة، بعدما عاش الحياة بطعم الموت، حتى جاء إلى الموت مُخيّرًا، حيث ألقى جسده الهزيل في البحر، على أمل أن ترتقي روحه إلى السماء، كي يصل إلى أحلام حيث مستقره ومستودعه، كي يُنهي عقودا من الانتظار الحلو المُرّ، المُريح المُرهِق.. انتظار تعلَّم فيه أن يفي حتى النهاية، وعلّم منه غيره أن أهم ما يمكن أن يكسبه إنسان هو ذاته، قلبه، أحلامه التي لا يجب أن يتخلّى عنهم أبدًا، أيًّا كانت الخسائر.

عمر خطّاب.. رجل ظلّ وفيًا حتى النهاية، ليس لأحلام وحدها، ولكن حتى لكل جماد تنفس منه سيرة ما مضى، وحمل عبق أحلام، فحمل في جيبه المطواة واشترى وردة كي يمنحها لأحلام في الحياة الأخرى، ولم يجد أفضل من الصخرة التي بدأت قصة حبه وقصة حياته وأحلامه عليها كي ينهي منها كل هذا، آملًا أن يبدأ حياته وحبه وأحلامه في عالم آخر؛ فيه أحلام حاضرة لا تغيب.

بين قفزته في الماء من فوق صخرته المحبَّبة إلى البحر حبيبه وخليله وشريك تفاصيل الحكاية كلها، في تلك اللحظات الفاصلة بين آخر لحظات حياته وأول لحظات موته، في تلك المساحة البرزخية، تذكر حلم ليلته الأخيرة، كأن عقله الباطن أراد أن يكافئه بمشهد أخير يواسي به وجع عقود مضت، كأن عقله الباطن أراد أن يعتذر له عن كل المشاهد المريبة المؤلمة، وعن كل أحلامه الممتلئة بالهواجس والمُنتهية

باختفاء أحلام، كأن عقله الباطن وللمرة الأولى كان رؤوفًا معه، رحيمًا به، مُشفقًا عليه.

منحه عقله الباطن في ليلته الأخيرة، ثلاثة مشاهد، كان المشهد الأخير فقط هو الذي انتهى نهاية سعيدة تمناها لسنوات، مشهد مُنحت فيه أحلام قُبلة الحياة في عالم موازي، ودُهس فيه جسد عمر، لكنه لم يشعر بوجع جسده، لأن روحه كانت مهللة فرحة بحياة أحلام.

استيقظ الرجل الخمسينيّ في صباح يومه الأخير مبتسمًا، ممتنًا لعقله الباطن على هذه النهاية الأخيرة، ثم ذهب إلى البحر ووقف فوق صخرته مُبتسمًا مُنتشيًا فرحًا، وهو على أهبة الاستعداد للموت، وهو على أهبة الاستعداد لاستقبال الحياة الجديدة، مرتديًا ملابسه التي قابل أحلام بها، مرتديًا حتى نظارته الشمسية السوداء؛ لم ينسها، أراد أن يذهب إلى أحلام في اللقاء الثاني بكامل تفاصيل اللقاء الأول، وبدت له أحلام بفستانها الوردي ترفرف في السماء، وتنادي عليه ألا يتأخر أكثر من ذلك. هو يسمعها، لكنه هو غير قادر على الرد عليها، لأن المشهد جميل حدّ هروب الكلمات منه، فكان يُحرِّك رأسه بالإيجاب كأنها تراه، وكأنه يسمعها.

كان ينظر للبحر ويترجاه أن يبتلعه سريعًا وألا يشفق عليه، فيُغلق نافذة الحياة التي سوف يقفز منها إلى أحلام، ويُخبر البحر بأنه لم يفعل ذلك ليتركه وحيدًا، ولكنه سوف يعود إليه بأحلام يومًا ما، في حياة ما، ويعتذر له ويخبره بأنه لو كان قادرًا على حمله مع أشيائه الصغيرة

التي شاركته الحكاية حَمله، لكن البحر صديقه هو مَن سوف يحمله وليس العكس!

كذلك لم ينس أن يعتذر للصخرة، لأنه لا يستطيع حملها معه هي أيضًا إلى حياته الأخرى الجديدة، وأنه جُلّ ما كان يمكن أن يفعله لها هو أن يمنحها هي مكان انطلاق رحلته الأخيرة، كما كانت هي مهبط رحلته الأولى.

ولم ينس أيضًا من ضمن أشيائه الصغرى، أجندته التي حملت أفكاره وهواجسه، رباعياته ورسائله، فكتب في جزء كبير منها كتابته الأخيرة، في ليلته الأخيرة، كتب كل قصته مع أحلام ووضعها داخل مظروف كبير كي يرسله إلى صديقه فارس، الذي يعيش في لندن ويعمل لدى صحيفة لندنية شهيرة هناك. فارس الذي عاش مع عمر تفاصيل قصته منذ بدايتها وحتى بعد مرور كل تلك السنوات الطويلة عليها، لم يبخل عليه برسائل مستمرة له عنها، عن ملحمة انتظاره لها، ولم يبخل عمر عليه في النهاية بأن خطّ له رسالته الأخيرة، وهي الرسالة المحمّلة بملحمة حكايته كاملةً، بل ومنحه حق نشرها إن أراد!

(2)

في تلك اللحظة البرزخية بين حياته وموته، بين قفزته من أعلى الصخرة إلى سطح البحر، تذكر كل تفاصيل حياته التي مرَّ بها، هي كلها مشهد واحد من مشاهد متعددة تجمعه بأحلام يوم لقائهما الأول والأخير، ثم ما لبث أن تذكر الحلم الأخير، الذي منح أحلام قُبلة الحياة وجعلها فتاة عشرينية في انتظار أن يُشفى هو – الشاب العشرينيّ – من أوجاعه، كي يهرول إليها، ويبدأ معها من جديد

– عمر فتّح وفاق.. عمر فاق الحمد لله.. عمر فاق..

في تلك اللحظة التي كانت فيها الممرضة مبتهجة باستفاقة عمر، في نهاية أخيرة منحها له عقله الباطن، كان عمر لا يفتح عينيه بل يغمضهما!

في تلك اللحظة التي كان فيها فارس يُهلّل فرحًا مبتسمًا بالخبر السعيد، لم يكن صديقه عمر –صديق عمره– يستعيد وعيه، بل كان يفقده!

في تلك اللحظة التي بكت فيها نسرين من الفرحة، لأن عمر عاد للحياة، لم يكن عمر على وشك العودة إلى الحياة، ولكنه كان على وشك الانطلاق للموت!

في تلك اللحظة التي سجد فيها والد عمر ووالدته من فرحتهما بعودة الروح إلى جسد ابنهما، لم تكن الروح تعود إلى جسده، بل كانت تنسل منه!

في تلك اللحظة كان عمر يستيقظ من غيبوبة الحياة الحزينة، إلى غيبوبة الموت المُبهِج!

في تلك اللحظة كان عمر يمنح حضوره غيابًا لائقًا، ويمنح غيابه حضورًا لائقًا!

كان عمر ينتقل من الحاضر المتعلّق بثوب الماضي المؤلم، إلى مستقبل يخلق حاضرا جديدا سعيدا له مع أحلام!

كان عمر ينتقل من قلقه وتوجُّساته وتخوُّفاته إلى طمأنينته وأمنه وآماله العريضة!

كان عمر ينتقل من حياة الرجل الخمسينيّ بلا أحلام – والشاب العشرينيّ المُبتهج بحياة أحلام – إلى حياة كلها أحلام، أحلام فيها حقيقة، وأحلامهما فيها حقيقية.. حياة فيها عمر وأحلام فقط!

(3)

نحو المأمول تبدأ جثة عمر في التحرُّك أسرع، نحو أحلام المنتظِرة، والأحلام المنتظَرة، نحو الأفق، نحو تعامد السماء على البحر، هناك بعيدًا، حيث يصل جسده البحر بالسماء، ويجد هناك أحلام بانتظاره.

يتحرك جسده حركة سريعة مليئة بالاشتياق، بعد أن ملَّ الحركة البطيئة، بعد طول انتظار، كأن روحه هي مَن تدفع جسده إلى الأمام، حيث الأمنيات والأحلام!

ماتت أحلام، ولحق بها عمر.. ولكنهما لم يموتا!

فأحلام لم تمت، وعاشت بحبها في قلب ابنها عمر..

وعمر خطّاب لم يمت، لأنه بوفائه وانتظاره الملهم عاش في قلب شاب عشرينيّ حمل ثلاثة أرباع ملامح حبيبته أحلام..

وربما تعيش أيضًا حكايتهما في رواية جديدة لصديقه فارس، قد ينشرها ويقرأها الناس في يومٍ ما..

حفظ عمر الصغير حبهما!

وحفظ فارس حبهما!

وحفظ البحر حبهما!

وحفظت الصخرة حبهما!

وحفظت الأجندة حبهما!

تلك أحلام الرجل الخمسينيّ أن يعيش حبه موسومًا بالأبديّة، أن تعيش أحلامه، وأن يعيش هو مع أحلامه ويعيش بها!

خبر صحفي

"عُثر على جُثّة رجل في الخمسينات من عمره، داخل شقته بمدينة دمنهور، بعد أن اضطر أخوه الأصغر وابن أخيه لكسر باب الشقة واقتحامها، حيث تمَّ اكتشاف الجثة ممدة على السرير، وتبيَّن من الكشف الطبي أن الوفاة طبيعية، ولم يتبيَّن أيّ شُبهة جنائية أو شُبهة انتحار وراء الوفاة، مع ترجيحات بأن يكون هذا الرجل قد مات أثناء نومه، فاتحًا ذلك المجال لتساؤلات عده حول ابتسامته المرسومة على وجهه، والتي لاحظها كل من رأى الجثة، وكذلك تساؤلات أخرى حول ملابسه الغريبة التي كان يرتديها، وكذلك حول العثور بجانبه على مطواة قديمة، إلى جانبها مظروف كبير مُعنون باسم صديق له في لندن"

التعريف بالكاتب

- أحمد عبدالعليم حسن علاء الدين
- مواليد الأول من أبريل 1988
- تخرّج في كلية اقتصاد وعلوم سياسية، قسم علوم سياسية، جامعة القاهرة، 2009
- تمهيدي ماجستير علوم سياسية، جامعة القاهرة، 2014
- تُنشر مقالاته في عدد من الصحف المصرية والعربية، منها جريدة الشروق المصرية، وملحق السفير العربي اللبناني

■ صدر له:

- كتاب مصر حيّة (2009)
- كتاب ثورة السلاحف (نوفمبر 2010)
- كتاب مائة يوم ثورة (2011)
- رواية عبقرية الشر (الطبعة الأولى: يناير 2013 – الطبعة الثانية: يوليو 2013)
- ديوان ضَهر البيوت (يناير 2014)

■ للتواصل مع الكاتب:

البريد الإلكتروني: ah_eg_2000@yahoo.com

أحلام الرجل الخمسيني

كانت رقيقة حدَّ العصف بمشاعري، وبريئة حدَّ تورُّطها في سرقة قلبي، وعاقلة حدَّ جنوني بها، وهادئة حدَّ اندفاعي نحوها، وخجولة حدَّ تلك الجرأة المفرطة في أن تتقبلني كما أنا، كان حبًا من النظرة الأولى، من أول لقاء بين عينيَ وعينيها، تقاربنا وتوحَّدنا، وبدأت حكايتنا ولم تنتهِ، هي أحلام؛ رائحة البحر، وبراحه، وصوت الموج المرتطم بروحي!







ده كان ليه لما شفت عينيه
قلبي إليه وانشغلت عليه
ده كان ليه
لي كم كلمة يشبهوا النسمة في ليالي الصيف
وف قلبي شوق بيلعب بي وف خيالي طيف
بقى له يومين ما اعرفش وحشني ليه
أشوفه فين وان شفته حاقول له إيه
كان ليه
واللي غيرني واللي فاتني ف



تصميم الغلاف كريم آدم

دار اكتب للنشر والتوزيع
DAR OKTOB PUBLISHING HOUSE